

كلمة صغيرة

على صوت مدافع الصرب وهي تقصف مدينة "غوراجدة" يتم تصميم مخطط التدخل العسكري في المنطقة الجغرافية المرشحة لاحتضان العدو القادم.. تلك التي يلونها الدين الإسلامي وإن تباينت فيما عداه. هكذا تفكر النخب السياسية الغربية من روسيا إلى أمريكا ، بالرغم من اختلاف الرؤى وصراع الأطماع فيما بينها. ويبقى حل مأساة البوسنة مرتبطاً بإبقاء النزيف محصوراً في المنطقة المحددة ، إذ لو تعداها لاختلطت الأوراق بصورة قد تفسد جوانب من خطط استراتيجية أبعد مدى في الزمان والمكان ، لذا فإنه لا مانع من تقديم المهدئات ذات الصوت الضخم إعلامياً والأثر الهزيل واقعياً. إن لنا أن نطرح هنا سؤالاً صغيراً بحجم هذه الكلمة الصغيرة: ماذا بقي للجوقة الإعلامية في العالم العربي من شروحات وتحليلات كي تقدمها وتفسر بها إغراق الأصوليين (زعموا) في وهم ضخم اسمه "نظرية المؤامرة"؟!

الافتتاحية

أما أن للسيوف أن تغمد...! رسالة لإخوة الجهاد في أفغانستان

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،
أما بعد..

حينما انطلقت شعلة الجهاد الأولى ولم يُلق أحد لكم بالاً ، بل عده بعضهم طيشاً وتهوراً ، فكيف يستطيع همج رعاغ من رجال البوادي والجبال أن يقفوا أمام قوة نووية كبرى..؟! وما هي إلا أشهر يسيرة حتى سارت الركبان بأخبار انتصاراتكم وبطولاتكم ، التي أدهشت جميع المراقبين والمحليلين وأصبحت الشغل الشاغل للسياسة والإعلاميين ورجال الاستخبارات. كانت هذه الشعلة المباركة روحاً جديدة سرت في العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ، دبت الحياة في نفوس كثير من المسلمين ، فراية الجهاد التي ظلت منكسة عقوداً متتابعة في ظل أنظمة العجز والتبعية ، شمخت بكل إباء وشمم على ربي أفغانستان ، لتثبت للعالم أجمع أن الإسلام لازال حياً ، ولازال قوياً قادراً على العطاء. التفت جموع المسلمين على رايحكم ، وتقاطر الشباب من كل مكان إلى أرضكم ، يتربى على روايتكم وجبالكم ، تاركاً

وراءه النساء والأولاد والأموال ومن حبسه العذر منهم ، ظل قلبه معلقاً بكم ، تحدثه نفسه بالجهد يوماً بعد يوم.

كل انتصار لكم كان يهز قلوب المسلمين ، ويزيد من حميتهم وأملهم في الله العظيم ، فقد أصبحتم ملء بصر العالم وسمعه ، وأصبحتم «قضية المسلمين الأولى» . ألوف من الشهداء نحتسبهم عند الله تعالى .. ألوف من الجرحى والمعاقين .. ألوف من الأيتام والأرامل.. لقد كانت التضحيات جسيمة ، والأرواح العبة الطاهرة التي نحسبها استشهدت في سبيل الله ما كانت في يوم من الأيام عبة تحد من عزائمكم، بل كانت حادياً إلى مزيد من العطاء والبذل والتضحية ، ومازالت تلك القبور المتناثرة على الهضاب والجبال رمزاً من رموز الشهامة والكرامة ، ومازالت تلك الدماء الزكية تلون الصخور ورؤوس الجبال بأزهي الألوان وأعطرها.

كنا نسمع أخبار الشهداء وتضحيات الأبطال، ثم نرى دموع الشباب، بل والشيوخ تتساقط شوقاً إلى الشهادة ، كلهم يتمنى أن يكون ذلك الشهيد. ثم.. كانت الثمرة بحمد الله وفضله نصراً مؤزراً ، حينما سقطت كابل بأيدي المجاهدين ، وتفرقت فلول الشيوعيين ، وتعالى تكبيرات المسلمين فرحاً بنصر الله تعالى ، وجاء البشير يعطر أسماعنا بهذا الفتح المبارك ، حتى أصبحت آثار السعادة والفرح تُرى على الوجوه، وضجت مساجد المسلمين بالدعاء والثناء على الله ، وحمده والشكر له.

بدأت جموع المهاجرين في بيشاور وغيرها تحزم الأمتعة ، وتعود إلى وطنها فرحة بنصر الله ، استيقظ الأمل في نفوسهم ، فما أحلى العودة إلى الدور التي هجرت ، والمزارع التي أقفرت.. فضلاً عن حنين الصبية الذين ولدوا في المهجر يشدهم إلى المنزل الأول الذي طالما سمعوا عنه من آبائهم وأمهاتهم. نعم فتحت كابل وتحررت من أسر الشيوعيين ، ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟!

هل قامت دولة الإسلام الموعودة، وحكمت بالكتاب والسنة..؟! هل ارتفعت راية التوحيد، وتساقطت رايات الجاهلية..؟! هل اندحر الشيوعيون والعلمانيون والنفعيون، وشمخت رؤوس الموحدين الأبرار..؟! هل تساقطت الأحزاب والتجمعات القبلية، واجتمع الناس على كلمة سواء..؟! هل رسم المجاهدون خططهم لترسيخ الإسلام في بلادهم، وتعليم الناس أصوله وقواعده العامة..؟! هل ضمدت الجراح، وجفت الدماء، وبدأت رحلة الإعمار والبناء..؟! هل.. وهل.. أسئلة تتلاحق ، ولكن إجابتها جميعها مع الأسف الشديد واحدة لا تتغير: لم يحدث شيء من هذا على الإطلاق..!!

إذاً ما الذي حدث..؟! تحولت مدافع المجاهدين إلى إخوانهم يقتل بعضها بعضاً ، ويسفك بعضهم دماء بعض..!! بنيت تحالفات جديدة مدارها على المصالح الحزبية ، والمنافع القبلية..!! أصبح المتصارعون لا يجيدون إلا لغة الرصاص.. والتدمير..!! كان النداء الكريم الذي يشحذ الهمم ويقوي العزائم هو: الله أكبر.. الله أكبر ، ولكن أخشى أن نداء الغنيمة أصبح أرفع صوتاً..!!

لم يستطع الشيوعيون أن يعتدوا على المساجد خوفاً من غضبة الشعب أما صراعات الإخوة فقد وصلت إلى المساجد فدمرت بعضها..!! عند ذلك عادت فلول المهاجرين تحمل متاعها ثانية هاربة من كابل ، ولكنها هذه المرة لا تهرب من الشيوعيين ، بل من تقاتل «المجاهدين»!! وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على الحر من وقع الحسام المهند عاد الشيوخ والعجزة والنساء ثانية إلى مهاجرهم ، بقلوب امتلأت خيبة وحسرة وإحباطاً.. أهذه ثمرة الجهاد التي نتطلع إليها..؟! أهذا هو ثمن النفوس الزكية والجراحات الندية..؟! أهذا هو ثمن الدموع والدماء والأشلاء المتناثرة هنا وهناك..؟! أربعة عشر عاماً من اللأواء والعنت وألوان المصاعب والأهوال.. أتضيع وتتآكل أمام النعرات القبلية والأهواء الحزبية والحظوظ الشخصية..!

أيها المجاهدون:

كنا نتابع أخباركم يوماً بيوم ، وكنصت سامعين لمن يُحدّثنا عن أحوالكم وانتصاراتكم بكل فخر، وتلهج ألسنتنا بالدعاء لكم، ثم ها نحن اليوم نستحي ونتألم حينما نسمع صراعاتكم وتنافسكم على اقتسام السلطة.. إي والله نستحي لأنكم أصبحتم مادة لسخرية العلمانيين وتهكمهم..! لقد حاول كثير من الإعلاميين استغلال هذا الحدث لإثبات فشل تجربة الجهاد الأفغاني برمته ، بل أرادوا التسلق بذلك إلى القدح في كل عمل إسلامي في أي مكان كان..!

والذي ينبغي تأكيده أن للجهاد الأفغاني فوائد إيجابية كثيرة ، وكثيرة جداً ، منها إحياء تلك الفريضة التي أريد إِمَاتَتها في النفوس قروناً طويلة، وظهر أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة تُهاب متى ما استغلت مشاعرهم الإسلامية وقادهم أناس صالحون مصلحون ، وإثبات أن ديننا الحنيف هو الطريق المستقيم لإعادة مجد القوة والمنعة لأمّتنا، ولا طريق آخر غيره، فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما طلبنا العزة في غيره أذلنا الله. وهذه المحن الأخيرة يجب أن يستفيد منها المسلمون ، وعليهم أن يدرسوا المحاسن والمساوىء بموازين منهجية متجردة ، لتكون رصيذاً فاعلاً يُضاف لرصيد التجربة الإسلامية المعاصرة.

ولهذا نقول لكم أيها المجاهدون بكل صدق:

اتقوا الله في الفتوح المباركة التي فتحها الله على المسلمين.. اتقوا الله في الأرواح التي استشهدت.. اتقوا الله في الشيوخ والعجزة والنساء والصبيان.. اتقوا الله.. اتقوا الله.. اتقوا الله..!!

((ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)) (1). ((وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم)) (2).

التفسير بالمأثور نقد للمصطلح وتأصيل

مساعدة سليمان الطيَّار

إن المصطلحات العلمية يلزم أن تكون دقيقة في ذاتها ونتائجها، وإلا وقع فيها وفي نتائجها الخلل والقصور، ومن هذه المصطلحات التي حدث فيها الخلل مصطلح (التفسير بالمأثور)، وفي هذا المصطلح أمران: أنواعه، وحكمه. أما أنواعه، فقد حدَّها من ذكر هذا المصطلح من المعاصرين بأربعة، هي: (تفسير القرآن بالقرآن، وبالسنة، وبأقوال الصحابة، وبأقوال التابعين). (1)

وغالباً ما يحكي هؤلاء الخلاف في جعل تفسير التابعي من قبيل المأثور. (2) وأما حكمه، فبعض من درج على هذا المصطلح ينتهي إلى وجوب الأخذ به. (3)

وأقدم من رأيته نص على كون هذه الأربعة هي التفسير بالمأثور الشيخ محمد بن عبدالعظيم الزرقاني، حيث ذكر تحت موضوع (التفسير بالمأثور) ما يلي: «هو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة تبايناً لمراد الله من كتابه» ثم قال: «وأما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف بين العلماء: منهم من اعتبره من المأثور لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي». (4)

ثم جاء بعده الشيخ محمد حسين الذهبي (ت: 1977 م) فذكر هذه الأنواع الأربعة تحت مصطلح (التفسير بالمأثور)، وقد علل لدخول تفسير التابعي في المأثور بقوله: «وإنما أدرجنا في التفسير المأثور ما روي عن التابعين وإن كان فيه خلاف: هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأي؟ لأننا وجدنا كتب التفسير المأثور كتفسير ابن جرير وغيره لم تقتصر على ما ذكر مما روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وما روي عن الصحابة، بل ضمنت ذلك ما نقل عن التابعين في التفسير» (5).

منشأ الخطأ في هذا المصطلح:

إنه فيما يظهر قد وقع نقل بالمعنى عمن سبق أن كتب في هذا الموضوع وبدلاً من أن يؤخذ عنه مصطلحه استبدل به هذا المصطلح الذي لم يتواءم مع هذه الأنواع، ولا مع حكمها كما سيأتي. والمصدر الذي يظهر أن هذه الأنواع نُقلت منه هو رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة (مقدمة في أصول التفسير).

وقد وردت هذه الأنواع الأربعة تحت موضوع (أحسن طرق التفسير) (6) فهي عند شيخ الإسلام (طرق) وليست (مأثوراً).

ولو تأملت النقلين السابقين، فإنك ستجد أنهما يحكيان الخلاف في كون تفسير التابعي مأثوراً أم لا.

ويستجد هذا موجوداً في رسالة شيخ الإسلام ، ولكن البحث فيه ليس عن كونه ماثوراً أم لا ، بل عن كونه حجة أم لا؟
وبين الأمرين فرق واضح ، إذ لم يرد عن العلماء هل هو ماثور أم لا؟ لأن هذا المصطلح نشأ متأخراً ، بل الوارد هل هو حجة أم لا؟
وإن كان هذا التأصيل صحيحاً ، فإن اصطلاح شيخ الإسلام أدق من اصطلاح المعاصرين ، وأصح حكماً.

فهذه التقسيمات الأربعة لا إشكال في كونها طرقاً ، كما لا إشكال في أنها أحسن طرق التفسير ، فمن أراد أن يفسر فعليه الرجوع إلى هذه الطرق.

نقد مصطلح (التفسير الماثور):

مصطلح المعاصرين عليه نقد حيث يتوجه النقد إلى أمرين وإليك بيانه:

1- ا يتعلق بصحة دخول هذه الأنواع في مسمى (الماثور).

2- ما يتعلق بالنتيجة المترتبة عليه ، وهي (الحكم).

أما الأول: فإنه يظهر أن هذا المصطلح غير دقيق في إدخال هذه الأنواع الأربعة فيه ، فهو لا ينطبق عليها جميعاً ، بل ويخرج ما هو منها، فهذا المصطلح غير جامع ولا مانع لسببين:

أ- أن الماثور هو ما أثر عن سلف ، ويطلق في الاصطلاح على ما أثر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم.

فهل ينطبق هذا على تفسير القرآن بالقرآن؟

إن تفسير القرآن بالقرآن لا نقل فيه حتى يكون طريقه الأثر ، بل هو داخل ضمن تفسير من فسر به.

* فإن كان المفسر به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهو من التفسير النبوي.

* وإن كان المفسر به الصحابي ، فله حكم تفسير الصحابي.

* وإن كان المفسر به التابعي ، فله حكم تفسير التابعي.

وهكذا كل من فسر آية بآية فإن هذا التفسير ينسب إليه.

ب- أن الماثور في التفسير يشمل ما أثر عن تابعي التابعين كذلك ومن دُون التفسير الماثور فإنه ينقل أقوالهم ، كالطبري (310) وابن أبي حاتم (ت: 327) ، وغيرهما.

بل قد ينقلون أقوال من دونهم في الطبقة، كمالك بن أنس ، وغيره. ولو اطلعت على أوسع كتاب جمع التفسير الماثور، وهو (الدر المنثور في التفسير بالماثور) لرأيت من ذلك شيئاً كثيراً.

ولو قُبلت العلة التي ذكرها الشيخ محمد حسين الذهبي في إدخاله تفسير التابعين في الماثور ، لصح تنزيلها على الماثور عن تابعي التابعين ومن دونهم. وقد نشأ الخطأ في تصور ونقل الخلاف في تفسير التابعي ، وهل يندرج تحت التفسير بالماثور ، أم لا يصح أن يوصف بأنه تفسير ماثور؟ ونزل كلام العلماء خطأ في حكم تفسير التابعي على قضية كونه تفسيراً ماثوراً أم غير

مأثور ، ولم يكن حديث العلماء على كونه مأثوراً أم غير مأثور ، إذ لم يكن ذلك المصطلح معروفاً ولا شائعاً في وقتهم.

وأما الثاني وهو ما يتعلق بالحكم فإن بعض من درج على هذا المصطلح نصّ على وجوب اتباعه والأخذ به (7) ، وهو مستوحى من كلام آخرين (8). ومما يلحظ على هذا الحكم أنهم يحكون الخلاف في تفسير التابعي من حيث الاحتجاج ، بل قد حكى بعضهم الخلاف في تفسير الصحابي (9). ثم يحكمون في نهاية الأمر بوجوب اتباعه والأخذ به، فكيف يتفق هذا مع حكاية الخلاف الوارد عن الأئمة دون استناد يرجح وجوب الأخذ بقول التابعي ، فهم يَمرون على هذا الخلاف مروراً عاماً بلا تحقيق.

ثم إن كان ما ورد عن الصحابة والتابعين مأثوراً يجب الأخذ به على اصطلاحهم فما العمل فيما ورد عنهم من خلاف محقق في التفسير؟ وكيف يقال: يجب الأخذ به؟

ومن نتائج عدم دقة هذا المصطلح نشأ خطأ آخر ، وهو جعل التفسير بالرأي مقابلاً للتفسير بالمأثور وهو الأنواع الأربعة السابقة حتى صار في هذه المسألة خلط وتخطيط، وبنيت على هذا التقسيم معلومات غير صحيحة ، ومنها:

1- أن بعضهم يقررون في تفسير الصحابة والتابعين أنهم اجتهدوا وقالوا فيه برأيهم ، ثم يجعلون ما قالوه بهذا الرأي من قبيل المأثور ناسين ما مروره من قول بأنهم قالوا بالرأي ، فيجعل قولهم مأثوراً وقول من بعدهم رأياً ، فكيف هذا؟ وإذا كان الصحابة قالوا في التفسير برأيهم فلا معنى لتفضيلهم على غيرهم ممن بعدهم في هذه المسألة ، وهذا لا يعني مساواة من بعدهم بهم.

2- كما تجد أن كتب التفسير تُقسّم إلى كتب التفسير بالمأثور وكتب التفسير بالرأي ، وعلى سبيل المثال يجعلون تفسير ابن جرير من قبيل التفسير بالمأثور ، ولو أردت تطبيق مصطلح التفسير بالمأثور ، فإنك ستجد اختيارات ابن جرير وترجماته ، فهل هذه من قبيل الرأي أم من قبيل المأثور؟ فإن كان الأول فكيف يحكم عليه بأنه مأثور؟! وإن كان الثاني فإنه غير منطبق لوجود اجتهادات ابن جرير ، وفرق بين أن نقول: فيه تفسير بالمأثور ، أو نقول هو تفسير بالمأثور.

3- وقد فهم بعض العلماء أن من فسر بالأثر فإنه لا اجتهاد ولا رأي له بل هو مجرد ناقل ، لا عمل له غير النقل ، ويظهر أن هذا مبني على ما سبق من أن التفسير بالمأثور الذي يشمل الأربعة السابقة يقابله التفسير بالرأي. ومن ذلك ما قاله الشيخ الطاهر بن عاشور*: «أما الذين جمدوا على القول بأن تفسير القرآن يجب ألا يعدو ما هو مأثور ، فهم رموا هذه الكلمة على عواهنها ، ولم يوضحوا مرادهم من المأثور عمن يؤثر...». ثم قال: «وقد التزم الطبري في تفسيره أن يقتصر على ما هو مروى عن الصحابة والتابعين لكنه لا يلبث في كل آية أن يتخطى ذلك إلى اختياره منها، وترجيح بعضها على بعض بشواهد من كلام العرب ، وحسبه بذلك تجاوزاً لما حدده

من الاختصار على التفسير بالمأثور ، وذلك طريق ليس بنهج ، وقد سبقه إليه بقي بن مخلد ، ولم نقف على تفسيره ، وشاكل الطبري فيه معاصروه ، مثل ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم ، فلهذا الذين لم يحبسوا أنفسهم في تفسير القرآن على ما هو مأثور ، مثل الفراء وأبي عبيدة من الأولين ، والزجاج والرماني ممن بعدهم ، ثم من سلكوا طريقهم ، مثل الزمخشري وابن عطية» .(10)

وها هنا وقفات ناقدة لهذا الكلام:

الأولى: لم يصرح الطاهر بن عاشور بأولئك الذين «جمدوا على القول بأن تفسير القرآن يجب ألا يعدو ما هو مأثور» وفي ظني أن هذا لم يُقَلْ به ولكنه تأوّل لكلام من يرى وجوب الأخذ بما أثر عن السلف. الثانية: لم يورد الشيخ دليلاً من كلام الطبري يدلّ على التزامه بما روي عن الصحابة والتابعين فقط ، ولم يرد عن الطبري أنه يقتصر عليهم ولا يتعدى ذلك إلى الترجيح.

الثالثة: أنه جعل منهج الطبري كمنهج ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم ، وشتان بين منهج الطبري الناقد المعتمد على روايات السلف ومنهج هؤلاء الذين اعتمدوا النقل فقط دون التعقيب والتعليق ، وهذا المنهج الذي سلكوه لا يُعَاب عليهم ؛ لأنهم لم يشترطوا التعليق على الآيات والتعقيب على المرويات ، بل كانوا يوردون ما وصلهم من تفاسير السلف ، وهم بهذا لا يُعدون مفسرين ، بل هم ناقلو تفسير.

ومن هنا ترى أن الشيخ بن عاشور يرى أن من التزم بالمأثور فإنه لا يكون له رأي كالطبري. وأن من لم يلتزم بالمأثور فله دره! كما قال. وقد سبق أن ذكرت لك أن الصحابة والتابعين ومن بعدهم اعتمدوا التفسير بالرأي وقالوا به ، وإن من الأخطاء التي وقعت مقابلة أقوالهم التي هي من قبيل الرأي بأقوال أبي عبيدة والفراء وغيرهم ، بل الأعجب من ذلك أن تفاسيرهم اللغوية تجعل من المأثور وتُقابل بتفاسير أبي عبيدة والفراء والزجاج اللغوية ، وتجعل هذه لغوية.

كل هذه النتائج حصلت لعدم دقة مصطلح التفسير بالمأثور.

ما هو التفسير بالمأثور:

بعد هذا العرض ، وتجليّة مصطلح التفسير بالمأثور المعتمد في كتب بعض المعاصرين يتجه سؤال ، وهو: هل يوجد تفسير يسمى مأثوراً؟ والجواب عن هذا (نعم) ، ولكن لا يرتبط بحكم من حيث وجوب الاتباع وعدمه ، بل له حكم غير هذا.

فالمأثور هو ما أثر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعن صحابته وعن التابعين وعن تابعيهم ممن عُرفوا بالتفسير ، وكانت لهم آراء مستقلة مبنية على اجتهادهم.

وعلى هذا درج من ألف في التفسير بالمأثور؛ كبقي بن مخلد ، وابن أبي حاتم والحاكم ، وغيرهم.

وقد حاول السيوطي جمع المأثور في كتابه (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) وذكر الروايات الواردة عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصحابته وتابعيهم وتابعي تابعيهم ومن بعدهم.

وهذا لا يبنى عليه حكم من حيث القبول والرد ، ولكن يقال: إن هذه الطرق هي أحسن طرق التفسير ، وإن من شروط المفسر معرفة هذه الطرق. أما ما يجب اتباعه والأخذ به في التفسير فيمكن تقسيمه إلى أربعة أنواع: الأول: ما صح من تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الثاني: ما صح مما روي عن الصحابة مما له حكم المرفوع كأسباب النزول والغيبات.

الثالث: ما أجمع عليه الصحابة أو التابعون ؛ لأن إجماعهم حجة يجب الأخذ به.

الرابع: ما ورد عن الصحابة خصوصاً أو عن التابعين ممن هم في عصر الاحتجاج اللغوي من تفسير لغوي ، فإن كان مجمعاً عليه فلا إشكال في قبوله ، وحجته ، وإن ورد عن واحد منهم ولم يعرف له مخالف فهو مقبول كما قال الزركشي: «ينظر في تفسير الصحابي فإن فسر له من حيث اللغة فهم أهل اللسان ، فلا شك في اعتمادهم».(11).

وإن اختلفوا في معنى لفظة لاحتمالها أكثر من معنى ، فهذا يعتمد فيه إلى المرحلات.

أما ما روه عن التابعي فهو أقل في الرتبة مما روه عن الصحابي ، ومع ذلك فإنه يعتمد ويقدم على غيره.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

هوامش:

(1) انظر على سبيل المثال: مناهل العرفان للزرقاني 2/1213 ، التفسير والمفسرون للذهبي 1/154 مباحث في علوم القرآن لمناع القطان.

(2) انظر مثلاً: مناهل العرفان 2/13 ، التفسير والمفسرون 1/154 لمناع القطان 347.

(3) انظر مثلاً: مباحث في علوم القرآن ، 350 ، وهذا ما يتوحى من عبارة الزرقاني.

(4) مناهل العرفان 2/1213.

(5) التفسير والمفسرون 1/15.

(6) مقدمة في أصول التفسير ، تحقيق: عدنان زرزور ، ص 93.

(7) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ، 350.

(8) كالزرقاني ، والذهبي ، والصباغ (لمحات في علوم القرآن ، 177 وما بعدها).

(9) لمحات في علوم القرآن ، 180.

(10) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، 1/32 ، 33.

(11) البرهان في علوم القرآن ، 2/172.

* تفسير الطاهر بن عاشور المعروف (بالتحرير والتنوير) بالرغم من شموله واستقصائه لما يفسره من آيات، إلا أن منهجه العقدي أشعري يؤول آيات الصفات. وللمزيد انظر الكتاب القيم (المفسرون والتأويل) للشيخ محمد المغراوي المغربي، من مطبوعات دار طيبة بالرياض.

من فقه الدعوة نظرات تربوية في خلق الصدق

عبد العزيز بن ناصر الجليل

في الحلقة الأولى، تطرق الكاتب إلى منزلة الصدق العظيمة، ومبررات تناول هذا الموضوع، وحقيقة الصدق والفرق بين الصدق والإخلاص، ونواصل مع الكاتب نظرات أخرى في الموضوع.

-البيان-

وعلى ضوء ما سبق يتضح للقارئ الكريم أن الصدق أنواع ومراتب تتجلى فيما يلي:

1- صدق النية:

وذلك بأن تكون النية خالصة لله عز وجل وابتغاء مرضاته ، وأن لا يكون هناك باعث في الحركات والسكنات إلا مرضاة الله عز وجل ، فإن شاب النية شيء من حظوظها لم تكن صادقة ، وإن تكلم العبد بلسانه خلاف ما في قلبه فهذا أيضاً دليل على عدم الصدق في النية ، والأدلة في ذلك كثيرة منها قوله تعالى في وصف المنافقين: ((يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم)) [الفتح: 1] وقوله تعالى: ((من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون)) [هود: 15، 16].

ومن الصدق في النية: الصدق في العزيمة على الفعل إذا تمكن منه، لأن النية قد تكون صادقة، لكن العزيمة على الفعل ضعيفة وصاحبها متردد، وقد تكون العزيمة صادقة، لكن إذا جد الجـد، وعزم الأمر، وهاجت الشهوات خارت وضعفت، ولم يحصل الوفاء بالعزيمة، وقد لا تضعف في البداية لكن إذا باشرت الفعل وذاقت مرارته ضعفت وخارت، والموفق من وفقه الله تعالى وأمده بعونه ورحمته، ولو وكل العبد إلى نفسه ضاع وهلك، فيا حي يا قيوم برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً.

2- الصدق في الأقوال:

وذلك لا يكون إلا في الأخبار ، أو ما يتضمن الإخبار ، والخبر إما أن يتعلق بالماضي فلا يخبر عن الأشياء على خلاف ما هي عليه ، أو بالمستقبل كالوفاء بالوعد والعهد(1).

وهذه المرتبة من الصدق هي التي يحصر كثير من الناس الصدق فيها ، ولا يتجاوزونها إلى غيرها ، ولا شك أنها مرتبة عظيمة وتكملها من أعز الأمور وأشقها على النفس ، ولكنها يسيرة على من يسرها الله عليه ، وجاهد نفسه في تحقيقها.

صور من الصدق في الأقوال:

والصدق في الأقوال له صور عديدة منها:

أ- الصدق في نقل الأخبار:

فلا ينقل المسلم إلا الأخبار الصادقة ، وهذا بدوره يتطلب من الناقل التثبت فيما يقال ، واجتناب الظنون والأوهام والحذر من التحدث بكل ما يُسمعُ ، فمن حفظ لسانه من الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه ، فهو صادق في خبره وهذا يقتضي الابتعاد عن الظنون والإشاعات. قال -صلى الله عليه وسلم-: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» (2) ، وقال: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع» (3).

ب- الصدق في الوعد:

لأن إعطاء الوعد غالباً ما يكون بالقول ، فالوفاء بالوعد من الصدق في الأقوال ، وإخلافه يعد كذباً ، إلا إذا كانت النية عند إعطاء الوعد صادقة ثم حال بينه وبين تنفيذ الوعد أمر خارج عن إرادته ، فإن هذا لا يعد إخلاً للوعد وبالتالي لا يعتبر كذباً ، والوعد قد يكون على مكان معين أو في زمن معين أو على أعطية أو زواج أو أي أمر آخر يعد به الرجل أخاه ، فإن الإخلاف في هذه الأمور وأمثالها بدون مبرر شرعي يعتبر كذباً لقوله تعالى: ((واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً)) [مريم: 54].

ج - الوفاء بالعقود والعهود:

وهذا أيضاً من الصدق في الأقوال ، فإخلاف العهد والغدر فيه من أشد أنواع الكذب. قال تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)) [المائدة: 1] وقال تعالى: ((والموفون بعهدهم إذا عاهدوا)) [البقرة: 177]. ومن الوفاء بالعهد حفظ الأسرار وكتمانها ، ولعل قوله -صلى الله عليه وسلم- في التحذير من صفات المنافقين خير شاهد لما سبق ذكره ، يقول صلى الله عليه وسلم: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق: إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» (4).

3- الصدق في الأعمال:

وهو استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، وأن يجاهد العبد نفسه في أن تكون سريرته وعلاتيه واحدة ، وأن لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف به حقيقة: كمن يتظاهر بالخشوع في الظاهر والقلب ليس كذلك أو يتظاهر بالحرقة على الدين والغيرة على المحارم وهو في الباطن ليس كذلك والصور كثيرة جداً فمنها صور الرياء المختلفة، والقول باللسان

ما ليس في القلب ، وهذا لا يعني أن يترك المرء الأعمال الصالحة حتى يصلح باطنه، كلا ولكن يجاهد نفسه في أن يستحيل باطنه إلى تصديق ظاهره، يقول صاحب الإحياء: «إن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص ، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق» ، وقال يزيد بن الحارث: «إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النَّصْفُ ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور» ، وقال معاوية بن مرة: «من يدلني على بكاء في الليل بسّام في النهار؟» أ.هـ.

4- الصدق في مقامات الدين:

وهو أعلى الدرجات وأعزها ، الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور مباديء ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه ، كما يقال: فلان صدق القتال ، ويقال: هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة... وقال الله تعالى: ((إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا)) إلى قوله ((أولئك هم الصادقون)) [الحجرات:15] وقال: ((ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر)) إلى قوله: ((أولئك الذين صدقوا)) [البقرة:177].

من علامات الصدق:

إن للصدق علامات ومظاهر تنفي ضدها ، وإذا لم توجد أو كانت ضعيفة فإن ذلك دليل على ضعف الصدق ، وتسلب العوائق عليه ، ومن هذه العلامات ما يلي:

1- طمأنينة القلب واستقراره:

إن الصدق في جميع الأحوال باطنها وظاهرها يورث الطمأنينة والسكينة في القلب ، وينفي عنه التردد والريبة والاضطراب التي لا توجد إلا في حالات الشك وضعف الصدق أو عدمه ، يقول صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة» (5).

2- الزهد في الدنيا والتأهب للقاء الله عز وجل:

ومن علامة طمأنينة القلب النابعة من الصدق انشراحه وزهده في الدنيا والتأهب للآخرة ، قال تعالى: ((فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً كأنما يصعد في السماء)) [الأنعام:125] ، لما نزلت هذه الآية سئل الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن شرح الصدر فقال: «نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» قيل فهل لذلك أمانة؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت» (6).

فالصادق مع الله عز وجل لا تراه إلا متأهباً للقاء ربه ، مستعداً لذلك بالأعمال الصالحة ، والقيام بأوامر الله عز وجل والانتهاز عن نواهيه ، يريد بذلك وجه الله عز وجل متبعاً في ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم .

3- سلامة القلب:

إن من علامة الصدق سلامة القلب ، وخلوه من الغش والحقد والحسد للمسلمين ، فالعبد المؤمن الصادق في إيمانه لا يحمل في قلبه غلاً للمؤمنين ولا شراً ، بل إن حب الخير والنصح للمسلمين هو طبعه وعادته ، وهذه الحالة القلبية تظهر علاماتها على الأعمال ، وذلك بتجنب الظلم والعدوان والاستطالة على الأعراض ، والحرص على العدل والقسط مع الناس ، والانطلاق بما في الوسع لقضاء حاجات المسلمين وإغاثة ملهوفهم ودفع الظلم عنهم والحزن على مصابهم والفرح لفرحهم. إن كل هذه الخلال تفرزها سلامة القلب الذي يترتب عليه أيضاً مظهر من مظاهر الصدق ألا وهو محبة الناس لمن هذه حاله ، فيصبح مألوفاً لهم لأنه صدق معهم ؛ فالفهم وألفوه ، وتواضع لهم فأحبوه ، وهذا مصداق قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: «المؤمن مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» (7).

4- حفظ الوقت وتدارك العمر:

إن الصادق في إيمانه لا تجده إلا محافظاً على وقته شحيحاً به ، لا ينفقه إلا فيما يرجو نفعه في الآخرة ، ينظر إلى العمر كله كأنه ساعة من نهار وإلى الدنيا كأنها ظل شجرة نزل تحتها ، ثم قام وتركها ، فبادر بالأعمار الصالحة فراغه وصحته ، وشبابه ، وحياته ، وابتعد عن كل آفة تقطع عليه طريقه ، وتضيع عليه وقته ، وتبدد عمره القصير بما لا ينفع.

5- الزهد في ثناء الناس ومدحهم بل وكراهة ذلك:

ويتبع ذلك الزهد فيما عند الناس ، والقناعة بما كتب الله عز وجل ، وهذه الصفة إذا وجدت فهي علامة على الصدق والإخلاص ، وهي تنبع أصلاً من صحة المعتقد ، وكمال التوحيد لله عز وجل ، وحول هذه الصفة والوصول إليها يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار».

6- إخفاء الأعمال الصالحة وكراهة الظهور:

إن من علامة صدق العبد فيما يعمل له عز وجل حرصه على إخفاء عمله وكراهة اطلاع الناس عليه ، كما أن كراهة الشهرة والظهور علامة من علامات الصدق الذي يبعد صاحبه عن الرياء والسمعة والتصنع للخلق ، فكلما كان العبد صادقاً مع ربه عز وجل كلما كان حريصاً على إخفاء أعماله حيث لا يطلع عليها إلا الله عز وجل ، الذي يسمع ويرى ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها ، وإن حياة سلفنا الصالح مليئة بهذه النماذج الوضيئة نذكر منها ما يلي:

* عن أبي حمزة الثمالي قال: كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به ويقول: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل» (8).

* وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به.

7- الشعور بالتقصير والانشغال بإصلاح النفس ونقدها أكثر من الآخرين:

إن من أخطر ما على النفوس أن ينشغل العبد بغيره بالنقد والتقويم وينسى نفسه والتفتيش عن عيوبها ، وهذا للأسف كثير عندنا في زماننا هذا ، وإن من علامات صدق العبد مع ربه ومع نفسه أن ينشغل بنفسه وإصلاحها وتقويمها أكثر مما يعطيه لغيرها ، وإذا وجدت هذه الصفة نتج عنها المحاسبة للنفس والتربية والتزكية لها ، كما ينتج عن ذلك أيضاً احتقار النفس في ذات الله عز وجل والنظر إليها بالتقصير في جنب الله ، وبالتالي تنتفي صفات العجب والغرور والاعتداد بالنفس ، وعلى هذا فلا يجتمع الصدق والعجب في قلب مؤمن أبداً ، كما إن هذه الصفة تطهر القلب من الحقد على المسلمين ، وتصيّد أخطائهم وعثراتهم والتفكه بذلك في المجالس بحجة الدعوة وبيان الأخطاء والتحذير منها.

8- الاهتمام بأمر هذا الدين والجهاد في سبيل الله عز وجل:

إن الصدق في محبة الله عز وجل ومحبة دينه تقتضي أن يكون أمر هذا الدين هو شغل المؤمن الشاغل ، حيث لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال وهو يرى دين الله عز وجل ينتهك ويقصى من الحياة ، وبالتالي يرى الفساد المستطير يدب في أديان الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم. إن المؤمن الصادق لا يقدّم على هذا الهم الأكبر أي اهتمام من أمور الدنيا الفانية ، ولكن إلى الله نشكو حالنا ، وضعف إيماننا وركوننا إلى دنيانا حيث إننا إذا رجعنا إلى قلوبنا وما هي الاهتمامات التي تملؤها ، لم نجد عند أكثرنا وبالأسف إلا اهتمامات دنيوية بحتة هي التي تحتل الأرقام الأولى في تفكيرنا ، فمنها من همه الأول منصب يحصل عليه ، أو شهادة يستلمها ليعيش بها ، ومنها من همه زوجته وأولاده أو تجارته وأمواله... الخ. هذه الاهتمامات الفانية ، ثم إن كان هناك فضول تفكير واهتمامات جاء أمر هذا الدين والدعوة إليه بعد الاهتمامات السابقة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ضعف الصدق عندنا في الدعوة إلى الله عز وجل والجهاد في سبيله ، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى «وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع ودينه يترك وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- يرغب عنها، وهو بارد

القلب، ساكت اللسان ، شيطان أخرس كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق».

9- التميز:

إن التميز في حياة المؤمن أمر ضروري جداً خاصة في عصور الغربة ، وإن المسلم الصادق يُعرف بتميزه وإصراره على دينه بين الناس، فيعرف بصحة معتقده عند فساد المعتقدات، وبالتزامه بالسنة عند فشوا المبتدعات، وبصدق إيمانه إذا فشا الكذب والنفاق، وبعبادته إذا الناس يلهون ويلعبون ، وبأخلاقه إذا هدرت الأخلاق وضيعت.

هذه بعض صفات الغرباء الذين قال فيهم الرسول -صلى الله عليه وسلم-: «طوبى للغرباء أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم» (9).

10- قبول الحق والتسليم له:

إن من علامات الصدق لدى المسلم إذعانه للحق وقبوله من أي أحد كان فالصادق لا تراه إلا باحثاً عن الحق الذي يتعبد به لربه عز وجل ويقربه إلى مولاه ، وإذا بان له الدليل ولا ح له الحق فرح به ووجد فيه بغيته ، ولا يرده أبداً سواء أكان قائله صغيراً أو كبيراً، أكان عدواً أو صديقاً ، وإذا وجدت هذه الصفة الكريمة عند المسلم ، وصارت من عاداته وأخلاقه فإنها تنفي كثيراً من الصفات الذميمة مثل الكبر والاستعلاء والتعصب للآراء والتحيز للأشخاص والهيئات ، كما أنها تورث المحبة والألفة بين أهل العلم والدين ، وتورث الاجتماع والاتلاف وتنفي الفرقة والاختلاف ، كما أن قبول الحق والتمسك به يقتضي القول به والدعوة إليه دون لبس أو تردد ، فالصادق لا تراه إلا صادقاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يجامل ولا يداهن.

هذه بعض صفات الصادقين.. والله نسأل أن يجعلنا من الصادقين قولاً وفعلًا.. والله المستعان.

هوامش:

- (1) إحياء علوم الدين 4/533.
- (2) البخاري 9/171.
- (3) صحيح مسلم ، المقدمة.
- (4) متفق عليه.
- (5) رواه أحمد 1/201 ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح 1/637.
- (6) هذا الحديث قواه ابن كثير لتعدد طرقه 2/176.
- (7) رواه الإمام أحمد ، ج 2 9187.
- (8) صفة الصفوة 3/61.
- (9) رواه الإمام أحمد ، وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم 3921.

نشأة أخرى

محمد العبد

احترار المصلحون في أمر هذه الأمة ، فمنذ قرن ونيف والسؤال يتكرر : أين الخلل؟ وما هي العلة؟ ومن أين يبدأ الإصلاح؟ ووصل الحال بأحد زعماء المسلمين في أول هذا القرن - وقد استقر به المقام في المدينة النبوية - أن يجار بالشكوى ويقول : «لا يتحرك المسلمون حتى يتحرك جبل أحد من مكانه».

إن هذه الشكوى لها ما يبررها ، فهذه الأمة ليست أمة مستأنفة تبدأ طريقها من جديد ، بل هي امتداد لأمة بدأت في عصر الرسالة ، فهي تحمل بذور نهضتها ، ولكنها تحمل أيضا أعباء سنين متطاولة من التخلف والضعف والتفريق ، وجاءت آثار التغريب في العصر الحديث فزادت الأمور تعقيدا فكيف نخلص الفرد المسلم من هذه الأدواء ، وننشئه نشأة أخرى ليعود إنسانا فعلا صالحا مصلحا؟

لقد حام حول هذا الموضوع كثير من المصلحين الذين يريدون بالأمة خيرا ، فمن مقرب ومن مبعد ، ورفعت شعارات صحيحة ، ولكنها تصف أعراض الداء ولم تكشف عن العلة ، فعندما يقال : إن الخلل جاء من البعد عن شريعة الله ، فهذا صحيح ، ولكن لماذا يسكت المسلم عندما يطبق شرع غير شرع الله؟ ولماذا يستسهل هذا الأمر ، ولا يدافعه مع خطورته الشديدة؟ ما سبب ضعف شخصيته حتى يقبل بما هو واقع؟

لا شك أن العطب جاء من قبل ضعف العقيدة ، وعدم وضوحها ، ومن ضعف الإيمان وخلل في تصور الولاء والبراء ، ذلك لأن حرارة الإيمان هي التي تدفع بالسلوك والخلق إلى أعلى مراتبه ، وهي التي تساعد على قوة الصعود وعدم التنازل عن تطبيق شرع الله مهما كلف الأمر ، بل هي التي تحرق المراحل وتذيب العقبات من طريق الدعوة.

وأن قوة الإيمان ، وفهم العقيدة السليمة ، هو الذي ينتشل المسلم من أوضاع الجاهلية بشتى أصنافها ومسمياتها ، إلى آفاق الرشد والشهادة على الناس وعالمية الإسلام ، وهو الذي جعل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : «بلال سيدنا وأعتقه سيدنا» ، بينما نجد العصبية والحزبية تنخر في صفوف المسلمين الذين يريدون حمل الدعوة ، فكيف بغيرهم؟

قد تعيش أمة بعقائد واهية سخيصة ، وقد يعترّيها أزمات في هويتها ومبادئها ثم تستأنف حياتها ، ولكن الأمة الإسلامية أمة نشأت على الدين وقامت بالدين وهو الذي صنعها وحضرها ، وعندما يحدث خلل في الدين تقع الكارثة ، وتحدث الشروخ في جميع مناحي الحياة : السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتصبح الأمة حائرة بائرة مرعى لكل راع ، يسومها الخسف وسوء العذاب ، كيف نرفع من وتيرة هذا الإيمان حتى يعود إلى اتقاده وفعاليته؟ ويكون كالاتي الذي لا يقف أمامه شيء؟ وكيف يعود إلى العقيدة صفاؤها وأثرها

العملي ولا تكون مباحكات في الكتب والأذهان؟ هذا ما يجب أن تتجه إليه الهمم ، وهذا ما يجب أن تربى عليه جماهير المسلمين.

هموم ثقافية

التنمية في المجتمع الإسلامي بين الأصالة والمعاصرة

د. خلف خلاف الشاذلي

تُعَرَّف التنمية بأنها عملية تهدف إلى رفع مستوى معيشة أفراد مجتمع معين على المدى الطويل ، معتمدة بالدرجة الأولى على الإمكانيات الذاتية لهذا المجتمع ، مع تقدير واع للعوامل الخارجية ، وذلك عن طريق دعم مقدرة المجتمع على القيام بوظائفه الإنتاجية ، وتحقيق أفضل استثمار لإمكانياتها المحلية.

ولقد انبهرت الدول النامية، ومنها الدول العربية والإسلامية بالتجربة الغربية في التنمية، وما حققته هذه التجربة من إنجازات سريعة ، ومن ثم فإنها رأت ضرورة أن تحذو حذو هذه الدول إذا ما أرادت تحقيق التنمية المرجوة وظلت تعتقد في صلاحية النماذج والنظريات الغربية لفترة طويلة ، لتكتشف في آخر الأمر أن النماذج التنموية الخارجية ، شرقية أكانت أو غربية ، لم تكن تهدف إلى خدمة هذه المجتمعات ، ومنها المجتمع العربي المسلم ، بقدر ما كانت تهدف إلى استمرار استنزاف تلك المجتمعات ، وتؤكد تبعيتها لتلك الدول الأجنبية.

وأمام انهيار مصداقية عمومية وثبات النماذج التنموية والنظريات الغربية وعدم تمتعها بالقدسية من ناحية ، والأزمات التي أخذت تتعرض لها عمليات التنمية في بعض الدول ذاتها التي أخذت تطبق تلك النماذج لسنوات طويلة من ناحية أخرى ، بات من المؤكد عدم وجود نموذج للتنمية معد سلفاً في جملته وتفصيله يصلح لكل الأزمنة ولكل المجتمعات ، وذلك أن التنمية عملية مجتمعية تخضع لظروف كل مجتمع وخصائصه المميزة. وقد ركزت استراتيجيات ومداخل التنمية في معظم الدول النامية، ومنها الدول العربية، على أهمية التحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث وكان الاتجاه السائد في هذه الدول قائماً على محاكاة النموذج الغربي في التنمية دون فهم لأسس بناء هذه النماذج، ومدى ملاءمتها للواقع والظروف الموضوعية التي تعيشها هذه المجتمعات.

وتبلورت على الساحة الفكرية في مجتمعنا المسلم تيارات ثلاثة هي:

1- تيار التغريب الذي انبهر أنصاره بالغرب، وتبنوا الدعوة إلى ضرورة أن يصبح غربيين في كل شيء ، وراحوا يدافعون عن قيمة الثقافة الغربية بل والتغني بصلاحياتها، وفي الوقت نفسه ينظرون إلى الثقافة الأصيلة على

أنها «موضة» قديمة لم يعد لها قيمة جمالية ، على الرغم من أنه كثيراً ما تعود «الموضة» القديمة لتصبح «موضة» جديدة في حقبة تالية.

2- تيار الرفض لكل جديد أياً كان، تحسب تأثير العصبية للموروث، وذلك من خلال العمل على إحياء التراث والتمسك به لضمان الوجود المتميز والمستقل.

3- أما التيار الثالث ، فهو تيار الوسط، الذي يرفض أنصاره التقليد الأعمى والنقل الحرفي عن الحضارة الغربية ، وفي الوقت نفسه يرفضون الجمود والانغلاق.

ويقوم منهج هذا التيار على المزج بين القديم والحديث، أو بين الأصالة والمعاصرة: أصالة عصر ازدهار الحضارة الإسلامية والمعاصرة التي يحكمها واقع الأمة، والاستفادة من حضارات الآخرين ، استفادة الراشد الذي يُميز بين ما يتسق مع تميزه الحضاري ، وبين ما يؤدي إلى طمس الهوية الحضارية وانطلاقاً من الثقة بقدرة هذا التراث على استيعاب معطيات الحديث من ناحية والتفاعل معه من ناحية أخرى.

وفي هذا الإطار طرحت قضية الأصالة والمعاصرة نفسها على بساط البحث والمناقشة، وترددت أسئلة كثيرة في هذا الشأن ، وتعددت حيث إن كلاً من الأصالة والمعاصرة تظنان مفهومين محايدين حتى تصبحان إطاراً مرجعياً للتنمية في مجتمع من المجتمعات ، فبينما تشير الأصالة إلى الارتباط بالتراث المحلي ، نجد أن مفهوم المعاصرة يشير إلى الارتباط بمناهج عصر الصناعة ومنجزاته.

... وعموماً فإن مفهوم التحديث يرتبط بفكرة الصياغة الغربية للثقافات المحلية دون اعتبار لمضامين تلك الثقافات ، وهو بذلك يعتبر مفهوماً منحازاً لثقافة المجتمع الغربي.

مخاطر التحديث:

تقوم فكرة التحديث على إحلال الثقافة ، والنظم الاجتماعية والاقتصادية الغربية محل الثقافة والنظم الأصلية ، وقد سيطرت توجهات التحديث على معظم سياسات التنمية ، في الدول النامية ، ومنها المجتمع العربي الإسلامي باعتباره في زعمهم الحل الوحيد والأمثل لمشكلات التخلف ، وهو تفسير عنصري وقاصر للتخلف ، ويغفل جانباً كبيراً من الأسباب الحقيقية للتخلف وأخذت عمليات التحديث تمتد إلى جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، بل والتربوية والثقافية أيضاً ، لتأخذ شكل الغربية أو التغريب. والتحديث على النمط الغربي علاوة على ما فيه من مخاطر على الدين هو كارثة في شؤون الدنيا ، حيث يجعل من المجتمع العربي الإسلامي مجتمعا هامشياً ، ويكرس من تبعيته للخارج ، وتلك هي الغزوة الاستعمارية الحديثة فلقد أصبحت عملية التنمية من خلال محاكاة النموذج الغربي بمثابة أداة لنقل ثقافة المجتمعات الصناعية المتقدمة إلى المجتمعات الأقل تقدماً ، مؤدية بذلك نفس الدور الذي سبق وأن أدته أيولوجية التقدم في القرن التاسع عشر في كل من أمريكا اللاتينية وبعض دول الشرق الأوسط وإفريقيا، عندما

حاولت هذه الدول تبني أساليب وسياسات اقتصادية تهدف إلى تحقيق نمو اقتصادي ، متجاهلة بذلك الموروثات الثقافية والتراث الحضاري القائم .
* إنه في ظل التحديث ، على النموذج الغربي ، قد يصبح المجتمع متقدماً من ناحية استهلاكه للسلع والخدمات ، دون أن يتحول إلى مجتمع متقدم من الناحية الإنتاجية ، ويؤدي ذلك إلى الازدواجية الخطيرة على مستقبل التنمية في هذه المجتمعات ، وهي ما نراها اليوم في كثير من المجتمعات النامية ، من حياة إستهلاكية على الطراز المتقدم ، وحياة إنتاجية على نمط التخلف ، حيث تقدمت هذه المجتمعات في مجال الاستهلاك ، بينما تخلفت أو بقيت على حالها في مجال الإنتاج .

* إن التحديث على النموذج الغربي يشكل خطراً على الثقافة المحلية والتراث الأصيل والأبنية الاجتماعية والاقتصادية القائمة، حيث تصبح تلك المجتمعات أسيرة للقيم والأنساق الثقافية، وكذا الحلول التكنولوجية والأبنية الاجتماعية والاقتصادية الدخيلة ، كما أنها تصبح أيضاً أسيرة لتطلعاتها الاستهلاكية وعجزها الإنتاجي .

* إن الدعوة إلى التطوير والتحديث ، القائم على محاكاة النموذج الغربي في التنمية ، لا تعد أن تكون دعوة للاحتواء والتبعية، وتجسيدا للتشوه الحضاري الذي يهدد مجتمعاتنا، وفقدانا للثقة بالقدرة على الابتكار والتجديد .
* إن التحديث على النموذج الغربي ينطوي على مضامين أيولوجية، مادية وعلمانية، ووجودية وبرجماتية ، تشكل خطراً على المجتمع الإسلامي بخاصة حيث تبدو في ظاهرها الرحمة وفي باطنها يكون العذاب .

* وأخيراً فإن قضية الفكر الهدام ليست قضية محدودة بوقت معين ، ولكنها كانت وستظل مطروحة طالما أن هناك صراعاً بين الحق والباطل ، وقد يختلف الطرح في صورته وأشكاله ، ولكنه ثابت في أهدافه وغاياته والتحديث على طريقة النموذج الغربي في التنمية إنما هو شكل آخر من أشكال الفكر الهدام .

لا للتغريب:

لم تكن المشكلة تكمن بالكامل في المداخل أو النماذج التنموية المستوردة ذاتها ، والتي ربما تكون قد نجحت في الدول التي نشأت فيها ، بل تمثل القصور الأساسي في أن عمليات التحديث في مجتمعاتنا لم تكن نابعة من الواقع الاجتماعي والثقافي الأصيل ، فعلى عكس التنمية في كثير من المجتمعات الغربية ، نجد أن العوامل الأساسية التي دفعت إلى التغيير في مجتمعاتنا بدأت مع اختلال التوازن التقليدي الأصيل ، بفعل عوامل خارجية متضمنة في عملية التحديث والتحضر والتصنيع على غرار النموذج الغربي في التنمية، وأصبحت عمليات التنمية بذلك أسيرة عوامل خارجية غير متأصلة، حيث أخذت عمليات التحديث شكل التغريب ، وأصبحت هذه المجتمعات تسير بوعي أو بغير وعي نحو التبعية ، التي طالما تسعى هذه المجتمعات إلى التحرر من إسارها .

والحقيقة أن التبعية أصبحت تمثل واقعاً بسبب ما نحن فيه من تأخر وشقاق فقد كنا متبوعين أيام كنا أقوياء ، ونحن نتهم الغرب بأنه يجرنا إلى التبعية والحقيقة أننا نتبعه لأننا نشعر بأننا بحاجة إلى تقدمه وعلومه ، وصار أخشى ما نخشاه أن يؤدي ذلك إلى تغلغل أشكال التبعية إلى مجتمعاتنا نتيجة النقل الحرفي ، وعمليات المحاكاة العمياء لكل ما تهب به رياح الغرب دون إمعان النظر فيما أكان هذا مناسباً لنا أم لا.

هل نقول (لا) للمعاصرة؟!

... لا تعني الأصالة في ارتباطها بالتراث المحلي ، الجمود والتقوقع ذلك أن التراث يضم الموروث الحضاري بأجمعه ، ويحتوي على جانبين:
الأول: ثابت ويجب الحفاظ عليه ، ويتضمن اللغة والدين والقيم والتنشئة الاجتماعية ، والثاني: متغير يمكن التعامل معه كجزء من الحياة الحاضرة. فالأصالة بذلك لا تعني مطلقاً كما قد يتصور بعضهم الانغلاق على الذات في العلوم أو التقنية التي أصبحت ضرورية ، ولكنها تعني إعادة النظر في النماذج التي لقنها الغرب تلقيناً والتعامل معها بوعي، بل ومحاولة تجاوزها بمعطيات جديدة ، ولا تعني أن ندير ظهورنا تماماً للتطور الحادث بالفعل من حولنا ، ولكن تعني الدراسة المتأنية لاختيار ما يناسبنا ويدعم الهوية الحضارية والخصوصية الثقافية لمجتمعنا العربي الإسلامي ، ويؤكد أهمية التواصل الحضاري والتاريخي بالنسبة لهذا المجتمع.
فهل نقول الحضارة قذارة ، بحجة أنها حضارة الغرب ، ونغمض أعيننا تماماً عن ما يحدث من حولنا من تطور؟! إن القول بنعم للمعاصرة يعني التفاعل مع الحضارة ويعني أيضاً الحرص على امتلاك القوة بكل الصور، وهذا أمر مهم لإقرار الحق والعدل في الكون، وإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ، فالحق يحتاج إلى قوة تحميه وتفرضه. وحضارة اليوم هي حضارة مادية بكل المقاييس، تقوم بالدرجة الأولى على العلم التجريبي.
وعلى اعتبارنا مجتمعاً إسلامياً أن نأخذ بناصية العلم الذي هو السبيل إلى امتلاك عوامل القوة المادية ، وبخاصة تلك العلوم التي تتجاوز الحدود الدولية التي ليست حكراً على مجتمع بعينه ، وهي تلك العلوم الطبيعية التي تتعلق بدراسة المادة وخواصها ، وقد أخذ الغرب نفسه الكثير من النظريات العلمية عن العرب والمسلمين الأوائل أمثال: ابن الهيثم والرازي... فلماذا لا نأخذ عنهم في هذا المجال؟! ذلك أن التقنية في حد ذاتها ليست موجبة أو سالبة ، ولكن طبيعة المجتمع ومدى تماسك مؤسساته هما العاملان اللذان يجعلانها سالبة أو موجبة في تأثيرها ، ومن ثم فإن الحل لا يكون عن طريق الانغلاق على الذات ، ولكن يكون عن طريق العمل على سد الثغرات ونقاط الضعف التي قد تظهر في المؤسسات الاجتماعية والتي تفرزها التقنية الحديثة أو الانفتاح على العالم الخارجي.

مقال

واجبنا في زمن الانهزام

د. محمد بن عبد الله الشباني

تمر الأمة الإسلامية في هذا العصر بمرحلة من الدُّل والهزيمة لم تبلغها في أي حقبة من حقب التاريخ الإسلامي ، فقد اجتمعت قوى الشر من يهود ونصارى فرمت بسهامها عن قوس واحدة ، فأصابت الأمة في مَقاتل عدة ، ومن أهم المَقاتل التي أصابت الأمة التخلخل والنكوص والانهزام والاستسلام لرغبات العدو والإذعان بتنفيذ أوامره ، فأصبحت الأمة لا تملك من أمرها شيئاً .

إن الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام قد تعطل ، بل إن الدعوة إليه أصبحت أمراً نشاراً ، وأصبحت الدعوة إلى الاستسلام للأعداء بكل ما يطلبونه هي النعمة السائدة التي يتولى الإعلام غرسها وتثبيتها والتأكيد على أنها الطريق الأفضل لأخذ الحقوق ، فلا جدوى لما عداها من وسائل للحصول على الحقوق ، كما أنها الركيزة التي يقوم عليها البناء السياسي في العالم الإسلامي وتتولى القيادات السياسية تنفيذها بحماسة وجدية .

إن السؤال الذي ينبغي طرحه ومناقشته هو: ما دور الفرد المسلم في مجابهة هذا الواقع المؤلم؟ وكيف يمكن للفرد المسلم المجرد من جميع القوى المساندة ممارسة دور فاعل ومؤثر في مقاومة هذه الغارة التي تعددت أشكالها وأنواعها؟ وهل يمكن للفرد أن يمارس دوراً مؤثراً في ظل هذا الواقع؟ وكيف لهذا الفرد أن يمارس دوره الجهادي؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة ترتبط بمدى فهم الفرد المسلم لأهمية دوره في أحداث التغيير في المجتمع ، وإن الدور السلبي الذي يمارسه كل فرد من أفراد المسلمين إنما يعود في أساسه إلى الجهل المطلق لما يوجبه الإسلام على المسلم من مسؤولية تجاه مجتمعه .

لقد وردت أحاديث كثيرة تحدد دور الفرد في المجتمع المسلم ، وترتبط معرفة هذا الدور بفهم هذه الأحاديث وربطها بالواقع ، فمن تلك الأحاديث التي حددت دور الفرد في المجتمع ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقف على ناس جلوس فقال: (ألا أخبركم بخيركم من شركم، قال: فسكتوا، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلى يا رسول الله أخبرنا بخيرنا وشرنا، قال: خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره) (1) ، وما رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (المؤمن مرآة أخيه والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضعفه ويحوطه من ورائه) (2) وما رواه ابن حبان والنسائي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من آمنه الناس على دماءهم وأموالهم) (3).

إن المعنى العام لهذه الأحاديث يؤكد أن دور الفرد المسلم دور إيجابي يتفاعل مع قضايا المسلمين ، ويكون عوناً للمسلمين ، فيعمل بكل جهده على تقوية ومساندة إخوانه ممن يعانون الظلم والاضطهاد من الأعداء ، فعلى المسلم أن يؤمن شره عن المسلمين ، وأن يحوط إخوانه ، ويكف يده عن مساعدة أعدائهم وكف اللسان واليد يأخذ أشكالا عدة إذا أحسن استعمالها ، فإن تأثيرها على الأعداء كبير كما إنها نصرة للمسلمين. والسؤال هنا: كيف يمكن للمسلم أن يمارس هذا الدور المؤثر لصالح المسلمين في هذا العصر الذي أصبحت المناصرة الجهادية باليد والمال محظورة ، وباللسان ممنوعة في معظم الأقطار؟!

إن الفرد المسلم الواعي قادر على ممارسة دوره الجهادي إذا استشعر المسؤولية تجاه أمته ، وعزم على أن يمارس دوره الفردي مجرداً من كل أنواع القدرة على المجابهة ، وإن أول خطوة لممارسة هذا الدور تتمثل في معرفة أعداء الأمة الذين يحملون الحقد والضغينة على المسلمين وعلى الإسلام ، إن هذه المعرفة وتعمقها في نفس الفرد تمثل الخطوة الأولى في المجابهة ، ولهذا نجد أن من ركائز الإيمان الولاء والبراء ، ومن رحمة الله بالمسلمين أنه لم يدع أمر اكتشاف أعدائهم لقدراتهم، ولكنه سبحانه أوضح أولئك الأعداء بجلاء ووضوح لا لبس فيهما ، فقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بصريح العبارة في قوله تعالى: ((لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)) (4) ، وقوله تعالى: ((ولن ترضي عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)) (5) ، وقوله تعالى: ((ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً)) (6) ، فاليهود وأنصارهم من النصارى الذين تتركز قوتهم المعاصرة في أمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا ودول أوروبا في الغالب ، هم الأعداء الذين حذر الرسول منهم ، والذين ينبغي على كل فرد مسلم أن يحذرهم على أساس أنهم أعداء لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، إن التاريخ القديم والمعاصر أكبر شاهد على ذلك ، بل إن المصائب المعاصرة التي حلت بالمسلمين من احتلال لأراضيهم، وانتهاك لحرمتهم ونهب لخيراتهم، ومساندة لأعدائهم من اليهود والوثنيين من الهندوس والسيخ، والسعي بكل جهد على إيجاد الظروف السياسية والاقتصادية المعيقة لانعتاق بلاد المسلمين من قبضتهم من خلال التمكين للمنافقين والمرتدين من العلمانيين والمستغربين والانتهازيين بتسلم زمام الأمور في البلاد الإسلامية ، والعمل على القضاء على أي توجه شعبي للعودة إلى منابع القوة للأمة الإسلامية من خلال محاربة القيادات السياسية والفكرية ذات التوجه الإسلامي ، التي تطالب بأن يكون شرع الله هو الحاكم والموجه لشؤون الحياة لاشك أن لهم دوراً فيه.

إن هذا الواقع السيئ للأمة أدى إلى بروز ظاهرة الانهزام والشعور بالعجز عن مقاومة الهجمة الصليبية اليهودية والوثنية من الهندوس وغيرهم.

إن الفرد المسلم يستطيع لو تم إنماء الوعي الإيماني لديه أن يمارس دوراً فاعلاً ومؤثراً لصالح المسلمين من خلال الجهاد الاقتصادي والجهاد العقدي والثقافي بتحسين الأمة من خطر الغزو الثقافي الذي يمثل الخطر الأكبر على جهاز المناعة لدى الأمة.

من مظاهر الجهاد الفردي:

يستطيع الفرد المسلم ممارسة الجهاد الفردي في زمن الانهزام من خلال ممارسة دوره الاقتصادي، وتنمية الوعي الثقافي لأفراد الأمة الآخرين من خلال موقعه مستهلكاً للسلع ، وموجهاً لأسرته وممارساً لحقه الطبيعي في إبداء التعبير وإزالة المنكر والأمر بالمعروف من خلال أداء واجب الكلمة في محيطه الاجتماعي وتتمثل الوسائل التي يمكن للفرد أن يمارس دوره الجهادي في محاربة أعداء الأمة من خلال موقعه في المجتمع في عدة أمور يمكن تلخيصها في الآتي:

الأمر الأول: المقاطعة الاقتصادية بالامتناع عن شراء السلع سواء أكان الشراء للاستهلاك أو الاقتناء ، والتي تنتج وتُصدّر إلى بلاد المسلمين من الدول الغربية بعامة والعدو الصهيوني بخاصة ، والاستعاضة عنها بشراء السلع المنتجة في البلاد الإسلامية ، فهذه المقاطعة الفردية لا تكلف الفرد المسلم أي جهد ما عدا تغيير نمط الاستهلاك ، وإحلال سلع منتجة ومصنعة في البلاد الإسلامية محل السلع المنتجة في بلاد أعداء الإسلام ، وبهذه المقاطعة يتحقق أمران الأول: تشجيع منتجات البلاد الإسلامية وتقوية اقتصادياتها ، والثاني: محاربة العدو اقتصادياً بالامتناع عن شراء السلع المنتجة في تلك البلاد ومحاربة كل تاجر مسلم يستورد السلع الاستهلاكية من بلاد أعداء المسلمين وعلى كل فرد رفع شعار «قاطعوا الأعداء» بالامتناع عن شراء أي سلعة منتجة وموردة من بلاد النصارى ، وبالأخص الدول التي تتولى قيادة دول النصارى في عصرنا الحالي وتفضيل الدول الأخرى من غير الدول الإسلامية في حالة عدم وجود تلك السلع لديها بشراء السلع المنتجة مثلاً من الصين واليابان وجنوب شرق آسيا مثلاً وإن امتناع كل فرد مسلم عن شراء أي سلعة منتجة أو ذات علاقة تجارية أو اسم تجاري مرتبط بالشركات الغربية ، سوف يؤدي إلى وجود غضب شعبي تجاه ما تمارسه القوى الصليبية الحاكمة ، إن على كل فرد مسلم الامتناع عن شراء هذه السلع ودعوة الآخرين لذلك.

الأمر الثاني: أن يقوم كل فرد إذا كان صاحب شركة أو مؤسسة تمارس الأعمال التجارية بالامتناع عن الاستيراد من الدول الغربية والاستعاضة بالاستيراد من الدول الإسلامية ، أو الدول التي يمكن أن تكون يوماً عدواً للدول النصرانية ، كما أن على كل فرد يمتلك القدرة على الاستقدام للأيدي العاملة أن يمتنع عن الاستقدام من تلك الدول، وأن يمارس كل فرد إذا لم يكن صاحب شركة أو مؤسسة الضغط الاجتماعي من خلال النقد وإثارة الإحساس الديني لدى أصحاب هذه الشركات.

الأمر الثالث: أن يقوم كل فرد وبخاصة العاملين في حقل التعليم باستخدام التعليم وسيلة للجهاد بالكلمة بغرس القيم والمبادئ والأفكار الإسلامية التي تحمي أفراد الأمة وبخاصة الطلبة والطالبات من الغزو الثقافي، فالدول النصرانية تسعى إلى طمس الهوية الإسلامية، فقد تكالب الأعداء وسخروا جميع الإمكانيات من أجل هدم مقومات الأمة بإضعاف مفهوم الولاء والبراء من خلال الدعوة إلى التقارب بين الأديان ، الذي أصبح مصيدة وقع فيها كثير ممن ينتسبون إلى العلم والثقافة ، فالقصد من التقارب بين الأديان هو الاعتراف بالديانتين اليهودية والنصرانية المحرفتين وكأنهما صحيحتان ، مع أن الله أخبر أنه لا يقبل غير الإسلام ديناً في قوله تعالى: ((ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه)) (7)، وإن مبدأ الحوار مع الأديان المحرفة قد حدده الله ، فلا يجوز الحوار إلا وفق القاعدة القرآنية في قوله تعالى: ((قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)) (8) ، كما إن الغرب النصراني يسعى إلى إبعاد الأمة عن تحكيم شرع الله في الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وتبني سلوكيات الغرب النصراني من حرية مزعومة ، وإباحية وإلحاد وكفر بالله ، ولهذا فإن للمعلم أو المعلمة دوراً كبيراً في الجهاد من خلال جهاد الكلمة، وتزويد الطلبة والطالبات بالقيم السليمة ، ومحاربة جميع المظاهر السلوكية المنافية لقيم الإسلام وتعاليمه.

الأمر الرابع: أن يمارس الفرد المسلم من موقع عمله في غير حقل التعليم دوره في محاربة الخطط التي تسعى لتقويض مقومات المجتمع ، وبخاصة في حقل الأمن والإعلام ، فالدور الجهادي للفرد المسلم الذي يعمل في هذه الأعمال كبير وخطير، وبخاصة ما يتعلق بمحاربة المفسدين الذين يعملون على إفساد الشباب من خلال نشر الرذيلة بينهم، فإن هدف الأعداء هو نشر المخدرات والزنا وغير ذلك من الإفساد الأخلاقي ، وبالتالي فإن على المسلم الذي يعمل في الأمن مسؤولية تفويت الفرصة على الأعداء من خلال القضاء على أوكار الفساد ، وكذلك بالنسبة لمن يعمل في حقل الإعلام فإن عليه واجب نقل الصورة الصحيحة عن واقع المسلمين واستخدام المنبر الإعلامي بقصد توعية المسلمين بواقعهم وكشف أساليب الأعداء ومنع كل وسائل الهدم والتخريب لعقائد الأمة وقيمها، وبالتالي فلو أن كل صحفي أو كاتب في جريدة أو صاحب دار نشر امتنع عن نشر أي كتاب أو مقالة فيها إساءة للإسلام أو تساهم بنشر فكرة إلحادية، أو تسويغ الفاحشة، فإنه بهذا يمارس دوره الجهادي في حماية الأمة والمجتمع الإسلامي من الوقوع في مصيدة الأعداء ، وتوفير الأرضية لاتساع الصحوة الإسلامية.

إن للفرد دوراً كبيراً في محاربة الأعداء وإفشال خططهم ، وبالتالي فالجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام لا يقتصر على حمل السلاح فقط ، بل يشمل جميع أوجه الجهاد ، فالتفاعل مع هموم الأمة وقضاياها يمثل لونا مهماً من

ألوان الجهاد فالمسؤولية الفردية هي مناط التكليف في الشريعة الإسلامية ففي الحديث المشهور: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)»، فقد شملت المسؤولية جمع أفراد الأمة، ويؤكد هذا المفهوم حديث ابن عباس الذي رواه البخاري، فقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) (9) والاستنفا في زمن الانهزام يتمثل في قيام كل فرد بواجبه الفردي تجاه حماية الأمة من خلال استخدام الإمكانيات المتاحة له لصالح الأمة، وأن يكون قدوة للآخرين بممارسة دوره الفعال ، ودعوة الآخرين للاقتداء به.

هوامش :

- (1) رواه الترمذي ، كتاب الفتن ح76.
- (2) رواه أبو داود ، كتاب الأدب ح49.
- (3) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ح514 ، الرقاق ح36 ؛ مسلم ، كتاب الإيمان ح12.
- (4) سورة المائدة:82.
- (5) سورة البقرة:120.
- (6) سورة البقرة:64.
- (7) سورة آل عمران:85.
- (8) سورة آل عمران:64.
- (9) رواه البخاري ، كتاب الصيد ح10 ، كتاب الجهاد ح19227 ؛ مسلم ، كتاب الإمارة ح86.

الملف الأدبي
(نصوص شعرية)
.. رتابة..

د. صالح الزهراني

منذ تسعين حجة..
ثورة الوعي خامدة
يبدأ العرض ميّتا!..
فوق أشلاء صامدة..
البدايات واحدة!
والنهايات واحدة!
بطل العرض واحد..
قصة العرض واحدة..
مخرج العرض واحد..
والجماهير راقدة!
بعد يوم من الضنى
والوجوه المزايدة!..
.. أعلن الفاتح الأبى..
والزغاريد شاهدة..
عن فتوحات جيشه..
عن قواه المجاهدة..
أنها شقت المدى..
واستباححت وسائده!!
وأراقت دمّ الدجى!..
وأضأت فراقده..
كدّبت كلّ خائن..
فهي بالنصر عائدة..
وبدا شاعر الهوى..
يتهجّى قصائده!
وانتهى الفتح رقصة..
وغناءً ، ومائدة!
والجماهير لم تزل..
تشهد العرض جامدة..
عرفت كيف ينتهي..
عرفت كيف يبتدي..
أصبح الزيف قاعده!!

نقد على نقد

نقد ظالم.. ونقد نائم

محمود مفلح

يبدو أن صوت النقد في صحافتنا الأدبية الإسلامية وعلى أقلام كتابنا خافت جداً ، ومهما حاولت أن تُصغي إلى هذا الصوت فإنك لن تظفر بشيء ذي بال، على أن هذا الصوت لدى الآخرين قوي، واضح النبرات، شديد التأثير حيث تبلورت خطوطه، وتحددت توجهاته، واستقرت كذلك رموزه. ولا أبالغ إذا قلت ومن خلال متابعتي المتواضعة لما يصدر هنا وهناك من صحافة أدبية أقول لا أبالغ إذا قلت: إن المرحلة الراهنة هي مرحلة النقد ، وإن القوم جادون في تأسيس نظرية نقدية تناسب رؤيتهم ومنطلقاتهم، وهم مشغولون بتأصيلها ، يقيمون تنظيراتهم على ضوءها ، ويُجرون كذلك التطبيقات اللازمة على نصوص يختارونها من أجل دعم هذا التوجه النقدي وترسيخه.

حتى ظهرت أسماء نقدية مهمة لا نستطيع أن نتجاوزها، أو نقفز فوقها أو نستهن بمجهوداتها الدؤوبة في مشرق الوطن العربي ومغربه ، وإن المتأمل كذلك فيما يُكتب من نقد هنا وهناك لابد وأن يلاحظ أن ثمة اتفاقاً وإجماعاً على توجه نقدي معين، وأن ثمة جسوراً تقام بين هذا الناقد وذاك ، فكان هذا هو الصوت ، وذاك هو الصدى في تناغم عجيب ، واتفاق يبعث على الدهشة!

وإن النصوص التي يختارها هؤلاء النقاد تدور كلها في فلك الحداثة والتغريب ، والأشكال التعبيرية الجديدة، التي يكتنفها الغموض، ويُشكل لحمتها وسُداها اللغز والأسطورة والسحر، و «يفلسفون» لها ويؤولونها ويحاولون جاهدين أن يُقنعوا القارئ بأهميتها وريادتها. حتى أصبحنا نسمع بأسماء شعراء وقصاصين وروائيين ظهرُوا على الساحة فجأة ، بجهود هذه الأقلام النقدية الدؤوبة في التلميع والترصيع..! وظهرت على الساحة كتب تحمل سمات هذا الاتجاه النقدي، تُبشر بها الصحافة، ويكتب بعضها عن بعض ، وكلها تنويعات على وتر واحد ، إلا أن طابعها الإصرار والالتزام.

وكل النصوص التي تتناولها هذه الدراسات إبداعية ومعاصرة ومهمة وجديرة بالقراءة... إلا النصوص الإسلامية!! أو ما يقترب منها، فإنها في زعمهم فقيرة، متخلفة، فجة، تغلب عليها الخطابية والسطحية وهي تجافي روح الفن، وتتنافى مع الحساسية الجديدة ، والرؤية المعاصرة!! إنه حصارٌ محكم ، سبق التخطيط له ، والاتفاق عليه ، في لقاءات أدبية تمت وتتم هنا وهناك.

وهو واقع نقدي مؤثر حفر مجراه ، وظهرت نتائجه ، قَبْلُنَا ذلك أم رفضناه ، فرض نفسه على الساحة الأدبية بقوة ، ولا تكاد تخلو مطبوعة أدبية واسعة الانتشار من هذا التوجه النقدي الحديث.

حتى أصبح القارئ يُردد عن وعي ودون وعي مقولات هؤلاء النقاد ويتأثر بالنصوص التي يعرضونها ، ويعرف الكثير من الأسماء التي تمارس هذا النقد ، وتشتغل به.

وفي الجانب الآخر ترى النقد الإسلامي وللأسف البالغ مازال يحبو وليته يحبو بنشاط وحيوية.

واستعرض إذا شئت الصفحات الأدبية الإسلامية في أي مطبوعة تشاء فإنك قلّ ما تجد دراسة أدبية جادة عميقة ذات رؤية نقدية واضحة ، تنسجم مع قيمنا الحضارية وتعطي لهذا العمل أو ذاك حقه ، ولن تجد كذلك توجهاً نقدياً عاماً واضح المعالم ، ولن تجد أيضاً وأقولها بمرارة ، أسماء نقاد جادين دؤوبين مخلصين لهذا الفن أو ذاك ، رغم أن النتاج الأدبي الإسلامي معافى ومقروء ولا يخلو من جماليات تستحق أن يتوقف عندها النقد. ورغم أن الأساتذة الجامعيين الذين يحملون شهادات عليا في النقد الأدبي كثر والحمد لله وفيهم القادر على النهوض بهذا العبء ، لو نفّض عنه غبار الكسل وتجرد لهذه المهمة ، وإن تجربتي في هذا الصدد مع هؤلاء الأساتذة الأفاضل للأسف غير مشجعة ، إذ قمت عندما صدر ديواني الجديد «نقوش إسلامية على الحجر الفلسطيني» بإرسال نسخ منه إلى خمسة من هؤلاء الأساتذة ، وطلبت منهم في عبارة رقيقة أن يتفضلوا بالكتابة عن هذا العمل سلباً أو إيجاباً ، إذ أن الشاعر لا يطمئن على تجربته الإبداعية حتى يسمع قول النقد فيها.

وانتظرت شهوراً وشهوراً ، ولم يصلني من أحد منهم ورقة تشعر أن الديوان قد وصل فضلاً عن القيام بالكتابة عنه ، رغم أن حظي أفضل من غيري في هذا الصدد.

وأنا أعرف عشرات الأعمال الأدبية الإسلامية قد صدرت هذا العام والعام الذي قبله ، ولم ينهض لها النقد ، ولم يقترب منها رغم أهميتها. فالإبداع في واد والنقد في واد ، ومازال بعض نقادنا مشغولين بتنظيراتهم، ورؤاهم، وتعريفاتهم ومصطلحاتهم ، ولم يكلفوا أنفسهم مقارنة النصوص الإبداعية ، أو الحديث عنها ، حتى نهض بهذه المهمة أخيراً أو ببعضها الشعراء أنفسهم تعريفاً وتطبيقاً.

ولا أريد أن أدلل على أهمية النقد برواية «الذئب» ، التي كتبها أديب إيطالي مغمور ، ورفضت جميع دور النشر في إيطاليا طباعتها مما جعل صاحبها يتأثر تأثراً عميقاً أدى به إلى أن أصيب بنوبة قلبية مات على إثرها ، حتى سمع بالرواية ناقد شهير ، أعجب بها فكتب لها مقدمة ضافية ، ودفعها إلى دور النشر فلاقت رواجاً كبيراً ، وإقبالاً من القراء عجباً، وترجمت إلى جميع لغات العالم ، وصدرت منها حتى الآن الطبعة الخامسة والأربعون..

فالنقد هو الذي يعطي العمل الأدبي قيمته ، ويضيء أبعاده ويخط له مساراته الإبداعية الجديدة ، بالإضافة إلى أن الناقد يمارس عملاً إبداعياً جديداً لا يقل متعة وأهمية عن العمل المنقود .
وما لم تكن هناك حركة نقدية جادة ومستمرة، تواكب الأعمال الأدبية وتعلن عن ولادتها، وتمنحها شرعية القبول ، فإن الأدب الإسلامي عندنا سوف يظل يسير على قدم واحدة.

نصوص شعرية ذكرى العبور

محمد البراهيم

عندما حلت به ذكرى العبور
أنف الشامخ من صمت الجموع
ساقها روادها سوق الأمة
رهن الشامخ للسيف دمه
حطم الأوهام فيما حطمه
باع أمناً .. ورخاءً سئمه
واشترى خوفاً ورعباً ..
حيثما دار يدور
واشترى حبراً .. وغدًى قلمه
وامتطى الفارس ظهر الكلمة
ومضى ينشد ما بين السطور ..
وطناً ضيع يوماً رقمه

تلكم جملة ما قال الشهود ..
ومضى .. مثلما النجم يغور
غير أني ..
أعلم اليوم تمام الملحمة
فلقد برّ بوعد
ومشى الدرب لوحده
لكأنى ..
أسمع الآن وجيب الحممة
وأرى الفارس يعلو فرسه
نسج العز لجاماً ألجمه
هتف المخير .. إذ كان معه :
ويحه .. ما أقدمه ؟!
حدثه النفس : « ماذا لو يحوز ؟ !

أُثْرى يُبْدي أَسِيفاً ندمه؟
فأجاب العزم في عزم وقور:
«إن يك الموت قضي..
فلم الخوف لمة؟
أفراراً من قضاء لزمة؟!

أبصر الشامخُ أمراً نكره..
أبصر السادنَ يعلي صنمه
ناكرَ الأصل ربيبَ الدونمة!
يطمس الحق.. ويفري أمة
حسب الحق.. كما الماء يغور..
إنما يتبع فهماً فهمه

سمع الشامخُ أمراً نكره..
إذ بعيداً..
حيث لا ثم سوى همس الطيور
يسكن الشيخ الذي ظل خفياً..
وسميراً للنجوم
يزرع الحقل ويرعى غنمه
يعشق الليل ويهوى نسمة
يذكر الله ويرجو كرمه
رجع الشيخ.. إلى الكوخ الصغير
متعياً ذات مساءً
فرأى الكوخ هباءً!
عسكر الظالم غدراً هدمه
إذ وشى بالشيخ كيد العملاء
أي جرم أجرمه؟!
«أي جرم؟!..
وعلى الوجه تفاصيل ذهول وخفاء!
فأتى الرد نسيئاً..
من سفيه لطمة:
(أتظن السيد الوالي يجوز؟!)
ضحك الكل... وأنشد:
يسقط الصبح.. وتحيا العتمة!
يسقط العدل.. وتحيا الظلمة!
رمق الشيخ بعينه السماء..
سأل الله سؤالاً كتمه

سمع الشامخ.. والتدّ الفداء
ومضى يسعُرُ حربَ الكلمة

قرأ القارئ سطرًا...
في بقايا صفحة مهترئة:
«غيلَ بالأمس عدو الأنظمة!»

أيها الشامخ.. عذراً..
لم يزل يدهمنا سيل الفجور
لم تزل تسكننا عدوى الجحور
غير أننا.. سنصلي..
كلما مرت بنا ذكرى العبور:
«رحم الله قتيل الكلمة»
«رحم الله قتيل الكلمة»

قصة قصيرة

شيء لم يحدث...!!

عبد الحليم البراك

يرقب جدار صمت قد امتدت قامته حتى الأفق البعيد.. لونٌ أشهب وبرودة قاسية.. تجعله يحس بشيء من الانتشاء.. طعمهما الحلو في شفثيه اليايستين.. هذه الفتحة العلوية التي تكاد تختفي في ثنايا هذا الجدار الشامخ.. ثمة نور ضئيل منها.. كأمل ينتظره من بعيد.. الجدار يعانق الجدار.. وهذه السلسلة الحديدية لا تثقل أنفاسه الحرة داخله.. لا تمنعها من الفرحة.. وكأن شيئاً.. لم يحدث..

طريق مستطيل.. ينتهي بأفق حقله الصغير.. ثمة جموع وقحة.. قادمة..
- ألقها.. هيا..

- انتظر..

- ألقها.. قبل أن يرونا..

- أريد أكبر عدد منهم..

- أنت تقودنا نحو الحديد.. معاً..

- اذهب أنت..

- ولكن..

- إني أمرك.. هيا..

- ولكن..

- ولكن اذهب.. هل سمعت؟!

- حاضر!!..

غضب أحمر يتمخض عن انفجار مدو يحصد أربعة من ذوي الأكتاف المذهبة..
وأكثر من عشرة قد زينت أذرعهم الوقحة بشرائط خضراء.. ثمة عين لمحته..
لا محالة.. أمسكوا به.. أحس بشيء من اللذة.. وكأن شيئاً.. لم يحدث..

يرقب حلقات من حديد متراصة ومتراصة.. «ستحاكم!!..»
(لم أقترف جرماً.. أرادوا سرقة أنفاسي من أضلعي).
... يرقب باباً حديدياً أمامه.. أسود.. وعليه كتابات ثائرة..
صوت حذاء عسكري يرن.. يقطع مسافات من كهوف الصمت الداكنة.. حركة
غليظة تهز هذا الباب المترس.. رجل ضخم الجثة مكتنز الخطوات كجسمه..:
- موعد المحاكمة اليوم..

اجتاحت صدي كلماته أرجاء الفضاء الموحشة.. لم يعلق.. قام.. مشى.. خرج..
شم هواءً عفناً.. تفل عن يساره.. أحس وكأن شيئاً.. لم يحدث..

دلف إلى القاعة.. ثمة أشياء ميتة.. مسح القاعة بعينه.. الهواء العفن
أيضاً يتكوم في وسطها.. جهة المنضدة اللامعة.. يرقد عليها ثلاثة
أشخاص.. هم أنفسهم الذين راحوا جراء القذيفة.. «يبدو أنهم سينتقمون
الآن..»

طلبوا منه أن يقترب من أوسطهم.. نظرة ممددة ألقاها عليهم..:

- أنت مدان!!

- بماذا؟!!..

- بقتل أربع حمامات!!..

- ...؟؟!!

تذكر طفولته الممزقة.. وأحس وكأن شيئاً.. لم يحدث..

نصوص شعرية

.. دمة ..

على أطلال سربنتسا

فيصل بن محمد الحجى

سربنتسا.. مدينة بوسنية مسلمة، صبرت تحت وطأة الحصار والقصف
الصربي الشديدين عاماً كاملاً ، وهي تنتظر نجدة أحفاد طارق وصلاح الدين.
كان يكفيها الإمداد بالسلاح دون الرجال، فلم يطلع عليها وجه نصير إلا قلة
من شباب الصحوة الذين زرعوا قبورهم في أنحاء الأرض من أجل أن يورق
الأمّل، أما من بقي منهم حياً فهو ينتظر الاعتقال والمحاكمة إن عاد إلى
بلده بتهمة (البوسنيين العرب!) فما أمر (الأفغان العرب) عنا ببعيد.
واضطرت المدينة البطلة بعد نفاذ الذخيرة إلى الاستسلام المهين لقوات
الأمم المتحدة التي قامت بتنفيذ شروط (الصرب) ، وذلك بتدمير ما تبقى من
سلاح المدينة لتقف عارية أمام عدوها الفاجر.. فلا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم.

سربنتسا.. ما حفظناك كما يحفظ الحرّة حرّ بالدماء
عَظُمَ الخَطْبُ ولم نرفع له رايةً تغزو العدا أو علماً
لم يثُر (هارون) من عِلج غزا وسبى (فاطمة) أو (مريما)
عاث كلبُ الروم في أقداسنا ودفعنا جزيّة كي نَسْلَمَا!
صوفنا أو قطننا أو زيتنا ناله (نقفور) منا كرمًا!!
جزية (الكربون) من يجهلها؟! جشع يمتص منا الدسما!
سربنتسا.. أي جرح راعف مَلَأَ الآفاق حُزناً معتماً؟!
هذه صلبانهم... نعرفها حقها يكسو رُبانا عدما

سربنتسا.. أي ذل قاهر نحن أسلمناك للعار وما
جهرّة.. تلمس كفّ المعتدي وأخو النخوة يرنو صامتاً
كم أنين.. كم صُراخ ضارع!.. يا جيوشاً أتخمت أسلحةً
سمنت من جوعنا.. وانتفخت جثمت فوق تراقينا وقد
سمنت.. حتى حسبناها إذا كم تحدث خصمها هادرةً
وانجلى الموقف عن مهزلة: جرت الخذلان.. وانسلت إلى
لطخ الهامات عاراً مؤلماً أغضب العارُ بنا (معتصماً)
موضع العفة لمساً مجرمًا! كالذي يحجب عينيه العمى
فهل الأسماع تشكو صمماً؟! لم تدع في بيت مال درهمًا!
وغدا المغنم فيها مغرمًا! كتمت إصرارنا فانكتما
دوهمت أوطائنا.. تحمي الحمى وأتى الخصمُ ضحّي.. فالتحما
جبهة ديست.. وأنف رُغما مجلس الأمن.. تنادي الأمما!!

مراجعات أدبية رؤية في القراءة النقدية

د. مصطفى بكري السيد

القراءة النقدية: هي نظرية القواعد التي تحكم تفسير نص من النصوص الأدبية ، يتأكد فيها دور القارئ بوصفه أحد منتجي النص عبر علاقة تفاعلية تصل القارئ بالمقروء لتثمر إنتاج معرفة جديدة تتيح للقارئ توظيفها في إغناء ذاته أو في إعادة بنائها.

هذه القراءة الإنتاجية هي نقيض للقراءة الاستهلاكية، والقراءة الإنتاجية فعل حضاري، وهي بعد توفيق الله السبب القوي لتفسير المواقع والواقع ومن ثم تطويرهما ، وهي معيار الحكم في الخلاف في كثير من القضايا التي لا يكون سبب الاختلاف فيها راجعاً إلى الموضوع بل يعود إلى الكم والكيف القرائي حول هذا الموضوع.

ومثل هذه القراءة وهي قراءة «التدبر» بحسب المصطلح القرآني لم ولن تموت في العالم الإسلامي ، ولكن الذي مات بل في الحقيقة ولد ميتاً وجمهوره أخذ في التناقص هو اجترار الكلام والفكر المعلن، والرؤى القبلية، وإخضاع التعامل مع الإبداع إلى قوالب جامدة منغلقة لتصبح ذات صيغة سلطوية وتسلطية على الفكر الموضوعي ، ويكون سقف الفن عندها هو المقنن الجاهز والسلبي المستهلك ، والمثال الذي أسوقه على هذه القراءة تلکم القراءة اللغوية التي تتعامل مع كل علم من علوم اللغة تعاملًا مستقلاً دون أن تتمكن من سبكها في سبيكة معرفية تستدرج النص إلى الحكي والقول ، وتكاد تحصر النقد بمرجعية معجمية ويكون اهتمامها اهتماماً معجمياً في المفردة والتركيب لا اهتماماً بنائياً ودلالياً.

في هذه القراءة تغيب عن القارئ أوليات التعامل مع الشعر والأثر الفني عامة ، فهي تمكنه من الإحاطة بالمستوى الإخباري للنص ، ولكنها تحجب عنه المستوى الإشاري ، وهو ما تزخر به اللغة الشعرية فيما وراء المؤدى المباشر والذي يُكوّن نظام العلاقات الدلالية والإيقاعية في النص ، وهو الذي يجعل النص يُفلى من الظرف المحدد ، ويمتلك القدرة على البث المتجدد بحيث يخاطب أجيالاً عديدة.

تستهدف القراءة النقدية وضع النص في موضع البحث المعرفي استكشافاً لجمالياته وطاقاته الإبداعية وما يحمله من رؤى تحول وتحويل ، هذه القراءة يحجب نور شمسها أو يكاد التضخم في الدراسة الاجتماعية أو التاريخية الأدبية التي تجعل الأدب ملحاً بالحياة لاحقاً بالأحداث ، هل هناك أكثر اغتيالاً للأدب من أن يكون تاريخ الأدب أوفر حظاً في ساعات التدريس من النصوص ، وفي تاريخ الأدب يغيب النص أو يُغيب لا فرق ، ويصبح شهيداً لا شاهداً ، قتيلاً لا

مقاتلاً ، ويكف عن البحث المتجدد والدور المتعدد ، ولا أمل في استنقاذ النص الأدبي من تقزيمه وتحطيمه المتمثل بالبحث في ثناياه عن كل شيء إلا أدبيته. لا أمل إلا بأن نبذل جهداً مقابلاً لقراءة الاغتيال ابتغاء بلورة مفهوم ونهج جديدين في قراءة الأثر الأدبي ، دون ذلك لن يتم اللقاء بين المبدع والقارئ ، وهذه القراءة هي قراءة الكشف لا الوصف ، وبالمناسبة لتذكر أن الزمخشري أطلق على قراءته للقرآن الكريم اسم «الكشاف».

مقتل القراءة الأولى وخطورتها أن تكون أخيرة ، وهي تلك التي يتكلس فيها فهم الأدب كتكلس الشعب المرجانية حيث تُخضعُ الأدب لطفولية الفهم الذي يكتسبه الطالب في المرحلتين المتوسطة والثانوية أو تلزمه به البيئة المحلية.

القراءة الأدبية هي التي تَسْتغور النص كما لو كان منجماً ، تبحث عما هو ثمين ومحجوب في طياته ، فتعمل على استخراجها ، القراءة الأدبية لا تخرج إلينا قبل أن تدخل هي من خلال الناقد ، تدخل إلى العمل الأدبي لتعايشه وتنفذ إلى باطنه ، فتكشف عن الأدب قبل الفكرة ، فإن لم يكن ثمة أدب فليس بشافع له أدبياً أن يحتوي على أدق الأفكار.

القراءة الأدبية تتم على مستويين:

في القراءة الأولى يسلم الناقد نفسه للعمل ، أي أنه يمارس قراءة النص بوصفه قارئاً متذوقاً للأدب ومدرّباً على هذا التذوق ، وعادة ما يخرج من هذه القراءة بانطباعات تختلف من عمل إلى آخر ، فقد يخرج بالشعور باكتمال المتعة ، أو بالشعور بأن شيئاً ما خطأ أو لم يكتمل يحول بين شعور المتعة والاكتمال.

وفي القراءة الثانية يقيد انطباعاته مطبقاً للمنهج التحليلي على العمل الفني ومتبيناً للعلاقات التي تجمع الجزئيات في كلية فنية.

ومما يساعد على القراءة الأدبية أن يحرص الناقد على الإحساس بالأثر الفني بعد معاشته والالتصاق به التصاقاً كاملاً ، يمكن أن نسميه كمال الاتصال ، ذلك الذي يتم فيه استغراق يُوحد بين القارئ والموضوع ، بحيث يصبح الموضوع أي الأثر الفني ذاتاً وتصبح الذات موضوعاً. بذلك يستطيع القارئ أن يخرج انطباعه من حيز الخصوص إلى نطاق العموم ، وتبيت قراءته وسيلة من وسائل المعرفة عندما تأطرت بأطروحة ممنهجة تفيد كل مُتْلَق ومُتَلَق.

يجب أن يتذكر القارئ الأدبي أن ثمة فرقاً بين أن يقرأ صامتاً لنفسه وبين أن يقرأ ناطقاً لغيره.

وأخيراً فإن مشكلة النقد ليست معزولة عن مشكلة الفكر عندنا ، بل إن مشكلة النقد هي مشكلة هذا الفكر أو هي وجه من وجوهها.

ونحن نمارس قتل روح النص في حق النصوص الحديثة والتراثية على السواء ، هكذا ما نزال ندرس المتنبي، المادح، ومايزال الموضوع أي سيف الدولة وحروبه محور شاعريته ، ويغيب عنا مناخ القمم الذي يكشف عنه نظام

العلاقات اللغوية في شعره ، يغيب عنا جواب المتنبي على عصر تقهقر فيه العنصر العربي المسلم ، يغيب عنا رفعه للصوت العربي في مقابل هيمنة العجم والعجمي في الفعل والقول ، رفعه لهذا الصوت أخاذاً في سماء أخذت فيه النجوم العربية الإسلامية بالأفول ، وأذنت شمسها بغياب العرب المسلمين عن قيادة الأمة التي سلبتهم إياها ، عناصر أعجمية عملت لحسابها أكثر مما عملت لحساب تواصل الدور الإسلامي وحضوره الدائم. إن الولوج إلى عالم المتنبي وأمثاله من الشعراء العظام لا يتحقق بقراءة سكونية سلبية مغلقة، بل بقراءة متحركة فعالة، لأنها تعامل حركي مع أثر يتميز بالحياة وقابليته للنمو والتوهج ، وقدرته على العطاء ، إن هذه القراءة تحقق اتصال الإبداع بالإبداع أي اتصال الإبداع النقدي بالإبداع النصي وتتسع لكلمة الآخر وسؤالاته.

ومع أننا نعتقد أن المتنبي قد أفرز مكتبة قرائية كاملة ، فإن كل قراءة لاحقة إضاءة للقراءة السابقة ، وكشف عن قارة من الطموحات انطوت عليها عبقريته الفذة.

إن النص الأدبي يستحضر إلى ساحته قراءات بعدد الاتجاهات القائمة في المجتمع، فهناك القراءة المثالية التي تستحضر معها مسطرة القيم المجردة المطلقة وتريد من الأدب أن يكون موعظة أخلاقية لا يعدوها إلى غيرها ، فإن لم تجد فيه بغيتهما أعرضت ونأت بجانبها. وهناك القراءة الخيالية التي تريد من النص أن يكون ركوباً يحملها بعيداً عن الواقع والوقائع ، لا تريد لغة مفهومة ولا قضية مخدومة ، بل تريد هروباً واختباء بالكلمات وتترسأ بالمبهمات ، وهناك القراءة السياسية التي لا تتبغى من النص أكثر من أن يكون نشرة أخبار جوية عفواً بل سياسية. أما مستويات القراءة فمنها ما يكون استكشافياً ، ومنها ما يكون استرجاعياً ، ومنها ما يكون عمودياً، ومنها ما يكون أفقياً، ومنها ما يكون استنطاقياً يقول فيها النص ولا يُقَوَّل.

هذه القراءات كلها تشكل مراجع ثانوية للقراءة الأدبية التي هي القراءة الأساس للنص ، والتي تعتمد على منظومة العلاقات الداخلية للبنية اللغوية وغيابها يعني إفقار النص واختزاله ، وبالتالي إلغائه.

إن هذه القراءة تسير في اتجاهين متبادلين من النص إلى القارئ، ومن القارئ إلى النص، فبقدر ما يقدم النص للقارئ ، يضيفي القارئ على النص أبعاداً جديدة قد لا يكون لها وجود في النص ، وعندما تنتهي العملية بإحساس القارئ بالإشباع النفسي والنصي ، عندئذ تكون عملية القراءة قد أدت دورها.

إن من أكبر مهام ومسؤوليات القراءة النقدية أن تؤصل وتؤثّل وتوسع من أمداء قراءة النقد التساؤلي الذي يضيف بالسؤال المهموم أكثر مما يعطي بالجواب المحفوظ.

وهذه مقاربة لاستنطاق النص القصصي الموجود في العدد (74) من مجلة البيان والمعنون بـ «حدث في السوق» بقلم د/ محمد الحضيف.

1- تلخيص النص:

ليس بمكنة أحد أن يختزل لغة النص ، فإذا كانت علامات الاستفهام والتعجب مقصودة ومن الدوال فما بالك بالكلمات بله الجمل؟ إذن سأختصر الحدث. المكان: سوق مزدحم (عنوان الجزء الأول من النص) ، رجلان من رجال الحسبة هيئة الأمر بالمعروف يؤديان واجبهما في مراقبة السوق ، يشك الأول منهما برجل ذي مظهر مريب ، فيقف منه موقف المتهم ، الرجل الآخر يرفض التهم المعلبة. يتمسك كل من عضوي الهيئة برأيه بعد حوار مقتضب. يتابع الثلاثة سيرهم ، يلقي الرجل ذو المظهر المريب برقم هاتف على عنقود من النساء ، تتحقق رؤية الأول في الرجل المريب ، ويمسك بالرجل ، ويدور بينهما حوار ، ويجتمع الناس ، منهم من يريد الدنيا فيقول: (حرام عليكم اتركوا الناس وشأنهم) ، ومنهم من يريد الآخرة ، ويوافق على اعتقال المريب: (جزاكم الله خيراً) ، الرجل الثاني يحاول أن يمحو صورة العنف في نفس المتهم يحاوره ويناوله شيئاً سقط منه ، ولا يتركه إلا بابتسامة تضيء وجهه.

المكان: مجلس مزدحم بعشرات الضيوف: انتهى الحدث في السوق ، يبدأ التعليق عليه في مجلس واسع (مزدحم بعشرات الضيوف).. يجمع الحاضرون على فظاظه بعض رجال الهيئة ، ويصفونهم بنعوت قاسية (.....) أو (وحوش) ، ويتفنن الحاضرون في السرد والقص وإلقاء التهم جزافاً. صوت واحد في المجلس إن الكرام قليل يقطع على الحاضرين حديثهم مفاجئاً إياهم بالرواية الصحيحة عما حدث. وهكذا يفاجأ الحاضرون بمن يقلب سحرهم عليهم ، ويرد سهمهم إليهم فيكون هذا السؤال: ما هي القصة إذن؟ إنه سؤال يعيد الحدث إلى درجة الصفر.

الصراع في النص: الصراع بين عضو الهيئة وزميله حول مدى اتهام الرجل ، وما إمكان براءته. عضو الهيئة الأول يقول عن الرجل المريب: (حليق ، والثوب طويل... والدخان ، والنظارة الشمسية). العضو الثاني: (هذه ليست أدلة إدانة).. (الحكم الأول).

الصراع بين الجمهور والمشاهدين: بعضهم وقد رأى الصراع والاشتباك بالكلام والأيدي بين عضو الهيئة والمتهم يقول: حرام عليكم اتركوا الناس وشأنهم. البعض الآخر: (جزاكم الله خير ، يا جماعة نظفوا البلد من ها العينات). مسافة واسعة بين الدعوة إلى حرية العبث ووصف التعرض لهؤلاء العابثين (بحرام) ، والدعوة إلى تطهير البلد من هؤلاء (الحكم الثاني). الصراع في منزل (مجلس مزدحم): حيث يرمي الحاضرون وهم (عشرات) يرمون الهيئة عن قوس واحدة ، وذلك بنسج (إسرائيليات) عن تجاوز رجال الهيئة ، وإخراج قصة من لا شيء ، ثم تنويع السرد في القصة الملفقة: (قبل أسبوعين في أسواق) وأمام الناس كلهم هجم اثنان من رجال الهيئات

(إن أولئك الوحوش طلبوا من الشاب أن يثبت أن المرأة التي بصحبته هي زوجته) (كان مشهداً لا ينسى حينما وضع أحدهم قدمه على وجه الشاب وقال له: أين لحيتك يا فاسق ، أو يا كافر على ما أظن!!). تقابل هذه النصوص والشهادات المعنونة بشهادة من شهد الواقعة ، فيرد الأمر إلي نصابه ولعل المتحدث الأخير (هو الذي يمثل الكاتب) ، وهو ليس بعيداً أن يكون الرجل المتهم الذي يظهر في أول النص ، فهو يقول للحاضرين الذين لا يهضمون طعامهم إلا بهاضوم من الباطل : (أنا الذي كنت في السوق ، وأنا الذي حدث لي ذلك الموقف مع رجال الهيئة.. سوء فهم حدث وتمت تسوية القصة بطريقة ودية).

2- القضية التي تموضع النص حولها:

يطرح النص الهيئة موضوعاً لمناقشته قصصياً ، الهيئة دوراً لا خلاف عليها نفى الخلاف ظاهراً على الأقل ولكن الخلاف على أداء هذا الدور. فعضو الهيئة الأول أشعل معركة أكبر من طاقة القضية، ولقد استعمل «مطرقة» لكسر «جوزة» ، أما الثاني فقد التزم الحوار وسار بالشوط إلى آخر المشوار ، فهو قد طيب خاطر المتهم ، ليقلب الطاولة في وجوه عصبة الإفك في نهاية القصة عندما جعل من خصم الهيئة رجلاً يدفع عنها حجج الحشرات التي اعتادت أن تمضغ أعراض الطيبين ، وإعمال مبضع النقد في ممارسات أهل الحسبة ظلماً وباطلاً. لقد أدان النص تسرع عضو الهيئة الأول وتشنجه وأظهر التعقل حلاً مطلوباً وطريقاً آمنة للوصول إلى أفضل النتائج ، ممثلاً بعضو الهيئة الثاني.

كما يطرح النص موقف خصوم الهيئة ، فهي لا تتحرك في فراغ إنها تصطدم بشهوات جامحة ، وشخصيات لا تتورع عن إنتاج الكذب وترويجه ومواجهة هؤلاء كما أشار النص أجدى ما تكون من داخل صفوفهم فصاحب العلاقة تكلم فسكت الجميع ، هل يمكن أن نقول إن نوعاً من التناص (تداخل النصوص) قد حصل بين هذا النص وشخصية امرأة العزيز في سورة يوسف عليه السلام عندما قالت (أنا راودته عن نفسه) والرجل هنا أيضاً يقول بملء فيه: (أنا الذي حدث لي ذلك الموقف مع رجال الهيئة، سوء فهم حدث، وتمت تسوية الأمر بطريقة ودية).

ينتهي النص بالسؤال: ما هي القصة إذن؟

لم يجب الكاتب، لأن قوة النص ليست فيما يقوله فقط ، بل وفيما لم يقله أيضاً. هل يحق للمرء أن يسأل هل الهيئة هنا رمز للدعوة الإسلامية؟ وهل إن السوق والمجلس المزدحمين رمز للمجتمع؟ وهل يتعين على الإسلاميين أن يعتبروا أو يصلحوا بعض أدواتهم (عضو) الهيئة الأول؟ وهل اقتنعوا بأن الحوار وإن طال أسلم عاقبة وأرخص تكاليف من منازل (دينكوشوتيه) تؤدي الدعوة ، وتخرج الدولة؟ وهل تكون أساليب الدعوة جامدة في عالم متغير؟

أعتقد جازماً أن الحل في الإسلام فقط ، ولكن المشكلة في المسلمين كأدوات لهذا الحل ما مقدرتهم على تحقيقه؟ لا بأس أن تعيد قراءة القصة، وشكراً.

المسلمون والعالم

أقدم التجارب العلمانية تترنح! قراءة في الانتخابات البلدية التركية الأخيرة

د. عبد الله عمر سلطان

بعد أيام من ظهور نتائج الانتخابات البلدية في تركيا، التي انتهت بتقديم ملموس لحزب الرفاه ذي التوجه الإسلامي ، زار وزير خارجية الكيان الصهيوني «شمعون بيريز» تركيا والتقى برئاسة الوزراء «تشيلر» ، وأجرى مباحثات تركزت على إحياء محور التعاون بين الدولتين في مجالات متعددة وصفتها المحللة الأمريكية «كاثي دافيس» بأنها ستغير من ملامح المنطقة إذا وجدت طريقها إلى التنفيذ ، حيث إنها ترمي فعلاً إلى قيام كيان شرق أوسطي فاعل ، يرتكز على التكامل بين الدولة اليهودية وأقدم حكومة علمانية في المنطقة، وبخاصة أن الزيارة جاءت بعد اهتزاز الثقة في قدرة النظام العلماني في أنقرة على الاستمرار كنموذج أمثل لبقية الكيانات العلمانية التي تتفاوض مع «إسرائيل».

لقد قررت الصهيونية ممثلة في رمزها الفكري/السياسي «شمعون بيريز» القيام بخطوة أكثر جسارة ، حينما سارع إلى زيارة أنقرة عارضاً عليها ملامح مشروعه «الشرق أوسطي» ، الذي طرحه بالتفصيل في كتابه الأخير ، وركز خلال هذا الطرح على أهمية وجود ركائز مشتركة بين «إسرائيل» قطب الرحى في المعادلة ، والنظم والكيانات السياسية المرتبطة والمندمجة معها «حضارياً» ، وهذا الشرط الحضاري يقتضي وجود حد أدنى من التبعية للغرب والولاء لنظامه السياسي العلماني ، هذا النظام الذي تُعتبر تركيا أبرز وأقدم وأقصى أمثله الراهنة.

خطان متقابلان:

إن خط الصهيونية مع تركيا قديم، ويمتد إلى ما قبل وجود كيان الصهاينة في فلسطين، ففي الذهن الصهيوني هناك مثالان متقابلان لتركيا ، أحدهما مثله السلطان عبدالحميد الذي رفض «التطبيع» مع مشروع هرتزل الصهيوني الذي كان يمثل مخرجاً «واقعياً» لمحنة السلطان والدولة المريضة في حالة موافقته علي مشروع الاغتصاب لأرض فلسطين... ، وتلك تجربة لا ينساها الصهاينة أبداً لرمز الخلافة الإسلامية التي شمخت رغم ضعفها ، ورفعت جبينها والمهالك تسن أنيابها وأظافرها لتقتلعها وتزيلها من الوجود... ، أما الصورة الأخرى لتركيا فهي التي يسارع «بيريز» وأي صهيوني آخر لمد الجسور معها والتحالف والتعاون مع القائمين عليها، وتلك هي تركيا العلمانية

الأتاتورية التي كانت دوماً بمثابة النافذة التي يتسلل منها المشروع الصهيوني إلى المنطقة ، ومنذ وقت طويل... ، لذا فإن زيارة «بيريز» وكلامه أمام الأقلية اليهودية التركية عن تعاون عسكري وأمني واستراتيجي مع تركيا العلمانية «البعيدة عن التعصب» يؤخذ في إطار المحور الذي شهد تحسناً كبيراً في الآونة الأخيرة حيث تعد النخب العلمانية التركية جماهيرها لمرحلة «شرق أوسطية» يكون لليهود والأتراك العلمانيين قصب السبق والريادة فيها ، خصوصاً في ظل خصوصية العلاقة مع الغرب وأمريكا بالذات. وفي كلام معلق الإذاعة الإسرائيلية تلخيص لخصوصية العلاقة بين العلمانية الطورانية والصهيونية البشعة ، حيث يقول: ظلت تركيا الرثة الوحيدة التي تتنفس من خلالها في المنطقة ، وظل النظام الحاكم في أنقرة صديقاً وحيداً لإسرائيل منذ البدايات انطلاقاً من علمانيته الصادقة ، وتحالفه الجدي مع المشروع الإسرائيلي التقدمي ، لذا فإسرائيل تشعر بالقلق حتماً من تنامي التيار الأصولي في هذا المركز الاستراتيجي المهم ، وهي مستعدة للدخول في شراكة حقيقية للحفاظ على مكتسبات سبعة عقود من التجربة الأتاتورية.

الأواني المستطرقة:

فوز حزب الرفاه بنسبة 6.18 % من الأصوات والحصول على المناصب البلدية في ست مدن كبرى و 22 بلدية في مراكز الولايات و 92 بلدية من بلديات الأقضية و 203 بلدية من بلديات البلدات ، مؤشر على تنامي العاطفة الإسلامية لدى الشعب التركي ، وصعود التيار الإسلامي ممثلاً في هذا الحزب في بلد مورست فيه العلمانية بقوة الحديد والنار ولأطول فترة في عالمنا الإسلامي ، فتجربة تركيا العلمانية هي الأقوى ، وهي الأكثر خبثاً وتلونا وثقلاً فهي تجربة بدأت عام 1923 م على يد الهالك «كمال أتاتورك» الذي أتى بمشروع تغريبي إلحادي متكامل يبدأ باللغة وينتهي بلباس الرأس مروراً بالقوانين والأنظمة والتهميش القسري لهوية تركيا المسلمة.

لقد تدخلت الآلة العسكرية الثقيلة ثلاث مرات على مدى سبعة عقود كلما شعرت أن «مبادئ أتاتورك» ومشروع العلمنة التركي في خطر: حدث هذا عام 1960 م حينما أعدم العسكر الهمج «عدنان مندريس» الذي كانت جريمته عودة الأذان باللغة العربية بعد أن حُرّم المسلمون من صوت «الله أكبر» لأربعين عاماً ثم ما لبثوا أن خرجوا من ثكناتهم مرة أخرى عام 1971 م بعد أن تعرض حزب الشعب الذي أسسه «أتاتورك» لنكسة انتخابية ، أما في انقلاب «كنعان أفرين» الأخير عام 1980 م ، فالسبب كان أكثر إلحاحاً ، بعد أن جاءت تحركات شعبية بالهوية الإسلامية وأعادتها إلى الواجهة والمناقشة ، وهو أمر يرفضه العسكر الأتراك الذين يشكلون العصا الغليظة لحزب الناتو «الأطلسي» ، الذي يصر على تخلي تركيا عن إسلامها مقابل أن

يقوم الجيش التركي «بالواجب» الملقى على عاتقه ، وهو حماية البوابة الشرقية والجنوبية لدول أوروبا النصرانية.

الغرب وتركيا العلمانية:

إن دول أوروبا إضافة إلى الولايات المتحدة ، ينظرون إلى تركيا العلمانية نظرة صغار واحتقار ، فبالرغم من الطرق المستمر لباب السوق الأوربية المشتركة ظل الباب مغلقاً أمام تركيا، التي تريد أن تكافأ على خدماتها وانضباطها العلماني وسلخها لهويتها الإسلامية، كما ظل الغرب ينظر إلى الجمهورية الأتاتورية على أنها نموذج «جيد» يستحق الاستنساخ في بقية المناطق العربية والإسلامية ، فهذه الملايين السبعين تعيش منذ تفجير المشروع العلماني دون هوية أو هدف أو رسالة ، بعد أن كانت هذه الأمة قبل قرنين تهدد قلب أوروبا وهي تحمل شيئاً من روح العزة الإسلامية ، وهذا العملاق الأناضولي قد تم استئناسه بطريقة عبقرية جعلته مسخاً لا هو بالمسلم الشرقي المعترف بأصوله ، ولا هو بالعلماني الأوروبي المفخر بانتسابه إلى نادي أوروبا النصراني والمسمى بالسوق الأوربية المشتركة. وما أقسى أن يعيش الإنسان دون هوية ، وما أقطع أن تكون الأمة بلا نسب أو حدود... ، ولابد هنا أن تمر الأمة بمرحلة البحث عن الذات والعودة إلى الأصول ، وهذه مرحلة انتقالية تمر بها أي أمة وهي تبحث عن هويتها ، وخلال عملية البحث تبرز المفارقات وتفرض المسلمات نفسها لاسيما بعد أن تأخذ التجربة أي تجربة مداها وزمنها والمساحة التي لابد بعدها من التوقف للتفكير ، وإعادة طرح الأسئلة البديهية التي غابت عن هذه الشعوب بقوة الحديد والنار ، أو بوعود الرفاه الاقتصادي والتقدم الاجتماعي الذي كان أشبه ما يكون بالسراب الذي يحسبه الظمان ماءً. صحيفة «الوول ستريت جرنال» الأمريكية كتبت عن أزمة الهوية هذه بعد بروز نتائج الانتخابات التركية قائلة: «يمكن القول بكلمات قليلة إن تركيا تمر الآن في مرحلة انتقالية غير أن هذا الانتقال يحدث وسط فراغ أيديولوجي يتعين على البلاد من خلاله أن تحدد هويتها في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة. والواقع أن هذا الفراغ ، الذي زادت من حدته الأزمة الاقتصادية العميقة والحرب الشاقة ضد الأكراد ، هو الذي دفع الأتراك نحو الإسلام لتحديد الاتجاه. ومن الواضح أن أزمة الهوية هذه كانت تتفاعل منذ وقت طويل، ذلك أن أيديولوجية تركيا المشتقة من تصميم «أتاتورك» على تحويل خرائب الامبراطورية العثمانية إلى بلد عصري على النمط الغربي ، غير قادرة في حقيقة الأمر على توفير الإجابات لعدد كبير من الأسئلة التي تواجه الأتراك اليوم.

إذ بعكس الماركسية والديمقراطية الليبرالية ، لا تملك «الكماالية» الأيديولوجية الشاملة التي تفسر المجتمع والتاريخ ، وهي ليست نظاماً أخلاقياً اجتماعياً في شكل ديانة تقليدية ، كما أن ظهورها وهيمنتها خلال القرن

الماضي حرم المجتمع التركي من الجذور الأخلاقية والاجتماعية التي يوفرها الإسلام وتجعل الناس يشعرون بالأمان.

لقد كان إنجاز «الكمالية» الرئيس هو تثبيت وتعزيز القومية التركية ، لكن ما إن ضربت القومية التركية جذورها في المجتمع حتى فقدت سبب وجودها ، هذا ما قاله الكاتب «ديليب هيرو» في كتابه الأخير الذي تناول فيه تركيا وآسيا الوسطى.

ومما لا شك فيه أن الإسلام يوفر الحل بالنسبة للكثيرين من الأتراك ، ففي كل سنة يتدفق مئات الآلاف من المهاجرين المتدينين غير المثقفين من منطقة الأناضول إلى الضواحي الفقيرة في أنقرة واسطنبول، ولعدم استعداد هؤلاء لفهم متع الحياة في اسطنبول ، ولذهولهم من الفساد المستشري في كل مكان ، يتحول معظم هؤلاء المهاجرين إلى حزب الرفاه ، بأمل أن يقيهم من السقوط الأخلاقي».

إن ما شهدته تركيا تشهده بقية بقاع العالم الإسلامي ، فهذا البعث الإسلامي أصبح هو الرقم الصعب والعامل المشترك لأي أمل قائم للخروج من نفق الواقع الملبد بالإحباط والتدهور ، إن انتخابات تركيا أكدت أن الصحو الإسلامية تعيش حالة تشبه الظاهرة الفيزيائية المعروفة بظاهرة الأواني المستطرقة ، فأنت حينما تضع مجموعة من الأواني المختلفة الحجم والشكل وتربط بينها بقاعدة مفتوحة ومشتركة، تجد أن الماء المصبوب في أنية منها ينعكس تلقائياً على مستوى المياه في الأواني الأخرى، وهكذا فالحالة الإسلامية اليوم تشبه مجموعة الأواني المستطرقة التي تستفيد من كل قطرة ماء تسكب في قالب مع اختلاف نوعي بين القوالب، نصر المسلمين في تركيا ينعكس على الحالة المعنوية لدعاة الإسلام في أندونيسيا ، وارتفاع راية الإسلام في أقصى طاجيكستان تحس بإيجابيته شوارع ساريفو ، والخلاصة أن عودة المسلمين إلى جذورهم في بلد الخلافة الإسلامية يعطي أملاً للعاملين من أجل الإسلام. إن أعنى وأبشع النماذج العلمانية بدأ يتحول إلى خندق الدفاع ، بعد أن ظل يطارد أهل الإيمان من مواقع الهجوم ملوحاً بالرخاء والتقدم والاندماج مع الغرب المنتصر والمحارب لهذه الأمة ، لاسيما بعد غروب شمس دولة الخلافة.

التحدي لا يزال ضخماً:

بالرغم من النتائج المفرحة لأداء حزب الرفاه التركي في الانتخابات، فإن بصمات العلمانية المنفرة لاتزال ملموسة على كافة الأصعدة، في الوقت الذي يظل اليسار الملحد واليمين الأمريكي يحظى بثقل وتأثير على الساحة السياسية والاجتماعية في تركيا ، وأمام هذا التحدي تبرز نقاط لابد من التوقف أمامها:

* أمام حزب الرفاه تحد عقدي يتمثل في قرون طويلة من التصوف والخرافة التي تسلمت إلى الحياة التعبدية لقواعد واسعة من الحزب ، كما يشكو الحزب من جانب آخر من ضعف في الجانب الفكري والتجديد في طروحاته

العقدية ، وما يتفرع عنها من مواقف سياسية واقتصادية واجتماعية ، وفي الوقت الذي يعتبر فيه الحزب صاحب صوت ضخم حالياً ، فإن هذا الصوت بحاجة إلى حنجره قوية وفكر متجدد ودوره دموية نشطة تساعد على تكوين قاعدة صلبة تجمع الرموز الإسلامية في تركيا على منهجية واضحة ، ولأبأس أن يبدأ الحزب بالاهتمام بهذا الجانب من الآن، خصوصاً أن في تجربته بعداً عن الحزبية الضيقة التي جعلته متعاطفاً مع قطاع عريض من الحركات الإسلامية.

إن التحدي القائم أمام الإسلاميين في تركيا أكبر من حجم المنافسة السياسية ، إنه تحد حضاري شامل ، وما لم يكن الشمول المتسلح بمنهجية سليمة حاضراً ، فإن دور الحزب سيظل جزئياً ، كما أن تكوينه العقدي والمنهجي سيظلان نقطتي ضعف واضحتين.

* أمام الرفاه تربص من قبل أحزاب الإلحاد والعلمانية والقومية المتطرفة كما أن العلمانية التركية تتمثل في شخصيات ورموز ومؤسسات تعيش على الإرهاب العلماني القائم ، هذه الأحزاب والشخصيات ستركز على البلديات التي يحكمها الإسلاميون ، وستجنى في الحكم عليها ، وستضخم أخطاءها وستحاربها بالشائعات والقصص المختلفة ، وهذا ما يحتم على الحزب اليقظة والحذر وممارسة أساليب النقد الذاتي ، فالعلمانية التركية تظل أقدم تجارب العلمنة تاريخاً وجذوراً إذا ما قورنت بالتجارب العلمانية الأخرى في عالمنا الإسلامي.

* أما أكبر الدروس التي نخرج بها، فهي قوة هذا الدين الذاتية التي صمدت وتصمد أمام أعنى الحروب وأقسى المواقف والظروف ، ويوماً بعد يوم يصلب عود هذه الأمة وتعود إلى نبعها الصافي ، وحين يقارن بضعف الجهود وكثرة الأخطاء وقلة ذات اليد ، فإننا لابد أن نخرج بمُسلّمة تصرخ وتقول: إن هذا الأمر هو أمر الله ، وإن ضعف الداعي، وحورب المبلغ ، وتكالب العدو.

* هناك المؤسسة العسكرية التي صرح مسؤول المخابرات فيها بـ«تأثير» مهددة أو أن النتائج: أنها ستتدخل في أي ظرف تشعر أن مبادئ «أتاتورك» مهددة أو أن العلمنة تتعرض للخطر ، هذا التصريح أمامنا تتناقله وسائل الإعلام ، وبين أيدينا تاريخ العسكر الطورانيين يؤكد انحياز العلمنة إلى التسلط وفرض خياراتها بالقوة أو الديموقراطية التي توافق مكاييلهم.

* الصحافة التركية وكر من أوكار الملاحدة والعلمانيين، مارست وتمارس التحرش بالإسلام وأهله، كما أن قنوات الإفساد التي تنتشر في تركيا وبتشجيع من أهل الفساد والإضلال ستزيد من نشاطاتها ، مما يحتم بروز قنوات إعلامية ملتزمة بالدفاع عن المشروع والهوية الإسلامية في تركيا.

* النزاع العرقي كشف أن الأكراد وغيرهم من الأقليات المسلمة المضهدة قد أعطت صوتها لحزب الرفاه، لأنه دعا إلى رفع الاضطهاد الطوراني عنها ووعداها بعدل الإسلام وسماحته، والمطلوب الآن أكبر من شعار حيث إن انتشار

الدعوة بين هذه الأقليات وتعريفها بكينونتها الإسلامية وهويتها ، أمر مطلوب بل بالغ الأهمية في هذه المرحلة.

* الغرب الخائف المذعور من كل نصر للإسلام سيمارس حرباً ضروساً ضد الإسلام وأهله ، سواء أكان عن طريق مباشر أو بواسطة حلفائه وفي مقدمتهم اليهود ، وهذا يقتضي الكياسة والبعد عن الاستعراض الخطابي والعمل بجد وإخلاص على أرض الواقع بشمولية ، وعدم قصر النشاط الإسلامي على الجانب السياسي الذي هو أكثر النشاطات إثارة وغيظاً للقوى الدولية ، وأمامي الآن مثال لهذه الحرب السافرة ، يتمثل في مقال لمجلة «الإيكونمست» البريطانية التي تبث الذعر في قلوب الغربيين من حكم حزب الرفاه الذي سيحظر أهم إنجازات «أتاتورك» في إسطنبول وهي: الخمرات ودور الدعارة ، وبتهم بوعده رئيس البلدية الجديد الذي وعد بالقضاء على الدعارة والفساد وتحويل نشاط المدينة كمركز للمؤتمرات الدولية ، ولم تجد المجلة تعليقاً سوى: كيف سيحضر النساء المؤتمرات وهن بالعباءة؟! *

*ويبقى الاقتصاد المنهار تحدياً آخر يمثل نتائج التخبط الذي مارسته الحكومات العلمانية المتعاقبة، وهو يحتاج إلى إصلاح جذري وانفتاح على العالم الإسلامي الذي هو الامتداد الطبيعي لتركيا.

إن تنوع هذه التحديات وضخامتها يجعلنا ندعو لإخواننا المسلمين في تركيا بالنصر والتمكين والمبادرة إلى استخلاص الدروس والعبر من تجارب إسلامية مشابهة ، على أن تكون ذخيرة في معركة الصراع بين الإلحاد والإيمان ما بين الكفر والإسلام، ما بين العلمنة والحل الإسلامي... وهي معركة ضخمة نؤمن أنها طويلة وقديمة قدم الحق والباطل، والعاقبة للمتقين والبشائر هي علامات الترنج التي نشاهدها تعترى أقدم تجربة علمانية...

المسلمون والعالم أحفاد صلاح الدين بين مؤامرة الأعداء وخذلان الأصدقاء

أحمد العويمر

لم يتعرض شعب من شعوب الدنيا للظلم والمحن وهضم حقوقه بعد الشعب الفلسطيني مثل الشعب الكردي المسلم، وملف هذه القضية، بل المأساة الكبرى لهذا الشعب كما يراه خبراء الاستراتيجية الغربيون مطروح وبقوة على طاولة القضايا الكبرى في المنطقة، وإن هذا الملف مرشح للعديد من التطورات والتفاعلات خلال السنوات القادمة لأكثر من سبب، مما يمكن إجماله فيما يلي:

* ازدياد الاهتمام بقضايا حقوق الإنسان ومشاكل الأقليات في العالم.

* مطالبة الأكراد بحل تاريخي على غرار «حل الصراع العربي الإسرائيلي» و «الصراع بين البيض والسود» في جنوب افريقيا.
* تنامي وعي الأكراد وتحولهم إلى قوى سياسية في كل تركيا والعراق وإيران.

* شعور الغرب بوجود فراغ استراتيجي في المنطقة يمكن أن يخترق من قبل ما يسمونه بالأصولية الإسلامية.
* محاولة الغرب استغلال هذه الورقة وتأسيس المناطق الآمنة للأكراد شمال العراق ، هو الخطوة الأولى لتوتير الصراع الدائم في المنطقة (1) وسيكون هذا المقال فرصة لإعطاء فكرة موجزة عن هذا الشعب المسلم تاريخاً وواقعاً وعن معاناته وأسبابها والمؤامرة ضده والحل لمشكلته على النحو التالي:

لمحة جغرافية وتاريخية:

بلاد الأكراد أو «کردستان» منطقة واسعة تبلغ مساحتها (500ر000) كم2 يعيش فيها ما بين (25 - 30) مليون كردي مسلم ، وهم أكبر شعب في العالم ممن لا يملك السيادة على أرضه ، ولا إدارة بلاده بنفسه ، إذ أنهم موزعون على خمس دول هي: تركيا حيث يعيش فيها حوالي (800ر000ر10) نسمة وفي العراق (400ر000ر10) نسمة ، وفي سوريا (مليون) ، وفي إيران (500ر000ر5) نسمة ، والأكراد شعب عريق دخل الإسلام بعد فتح بلاده على يد الصحابي الجليل «عياض بن غنم» سنة (18 هـ) ، وكان «الققعاق بن عمرو» قد فتح قلعة حلوان جنوبي بلادهم سنة (16 هـ)، فدخلوا في دين الله أفواجاً وحسن إسلامهم وبقوا موالين للدولة الإسلامية حتى بعد سقوطها في حماة النعرات القومية من عربية وطورانية ، وشارك الأكراد في كثير من الأحداث التاريخية الإسلامية ، ومن أبرزها نصرتهم للعباسيين في قيام دولتهم وإعادة الخلافة العباسية إلى مصر على يد القائد المظفر «صلاح الدين الأيوبي» ثم كانت لهم حكوماتهم المستقلة في ظل الخلافتين العباسية والعثمانية ، ومن أهمها الحكومة الروادية في تبريز: 260-618 هـ ، والحكومة الشدادية بآران: 340-465 هـ ، الحكومة الدوستكية في ديار بكر ، والحكومة الأيوبية في مصر والشام وغيرها ، ونبغ من الأكراد علماء مشهورون ، أثروا الفكر الإسلامي أمثال (ابن خلكان، وأبناء الأثير الثلاثة، وابن الحاجب، وابن الصلاح، والحافظ العراقي) ، ومن أبرز دعائهم وعلمائهم المعاصرين (أمجد الزهاوي ود/ علي محيي الدين القره داغي ، ود/ مصطفى مسلم، والشيخ علي عبدالعزيز ، ود/ حمدي السلفي وغيرهم).

مأساة الأكراد البداية والمقاومة:

نشأت هذه القضية وفقاً لاتفاقية «سايكس بيكو» عام 1919 م ، حيث وزعت مناطقهم على خمس دول كما سبق الإشارة ، وذلك حينما عرف المستعمرون إصرار هذا الشعب المسلم على رفض التجاوب معهم ، والسير في ركابهم ، مما أدى إلى معاناتهم ممن حكمهم بالتمييز العنصري وتعرضهم للمجازر

الوحشية وحملات الإبادة المنظمة كلما بدرت منهم بادرة مقاومة فأصبحت مناطقهم مرتعاً للجهل والتخلف ومسرّحاً لتطبيق الأحكام العرفية فحدثت عدة انتفاضات في أجزاء عديدة من كردستان ، ففي تركيا قامت ثورة الشيخ «سعيد بيران» عام 1925 م ، وأخرى قادها الجنرال «إحسان نوري باشا» 1927-1930 م وثالثة في إقليم «دسيم» عام 1937 م ، عدا الانتفاضات التي مازالت قائمة حتى الآن التي يغلب عليها النزعات القومية البحتة ، وفي إيران حينما قامت دولتهم (مهاباد) عام 1946 م نسّق الشاه مع السوفييات آنذاك وبعد وقف دعمها سقطت الدولة عام 1947 م.

وفي العراق لم تهدأ ثورتهم بدءاً بثورة الشيخ «محمود الحفيد» 1920-1930 م ، مروراً بالثورات البرزانية الثلاث (2) ، التي كان آخرها عام 1961-1975 م حيث انطفأت بعد اتفاقية الجزائر بين شاه إيران البهلوي وشاه العراق صدام ، لكن الثورة استمرت ولم يوقفها إلا الغازات السامة التي راح ضحيتها ألوف من النساء والشيوخ والأطفال ، ومازال الأكراد يتعرضون لبطش طاغوت العراق حتى الآن.

لهذا تأمر الغرب عليهم!

يؤكد علماء الأكراد ومفكروهم المعاصرون أن شعبهم تعرض لمؤامرة دولية قام بها المستعمر الغربي بتوزيعهم في مناطق متناثرة ، وهذا التقسيم من أهم مظاهر مأساتهم ، يقول الشيخ «القره داغي» (3) إن ذلك التقسيم لم يأت اعتباطاً ، بل هو مقصود وبخطة استعمارية مرسومة تهدف إلى ما يلي:

- * الثأر من أحفاد صلاح الدين الذين هزموا الغزاة لصليبيين في معركة حطين.
- * إن الصليبيين لم ينسوا صلاح الدين حينما قام قائدهم وركل قبره برجله قائلاً: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين».
- * تمزيق هذا الشعب وإعطاء كل جزء منه لدولة، لجعل المنطقة بؤرة صراع دائم ، وهذا ما حدث بالفعل.

وتعرض الأكراد لحروب طاحنة وإفناء بمختلف الأسلحة المحرمة دولياً ولعل أشهرها مذبحه «حلبجة» ، ومما يؤسف له أن كثيراً من الدول العربية ساعدت في إبادة هذا الشعب بتعتيمها إعلامياً على هذا الظلم والطغيان ثم حصل اهتمام مفاجيء بعد حرب الخليج الثانية بالقضية الكردية حيث فتح الباب على مصراعيه أمام عدد من الباحثين والدارسين والإعلاميين ، فنقلت معاناة هذا الشعب ونشرت في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة ، وصدر الكثير من الكتب والمجلات عن الشعب الكردي لبيان تاريخه ودوره الإسلامي ومعاناته من ظلم الظالمين ، وإبراز ذلك بعد أن كان معتماً عليه ، ولكن كما قيل «بعد خراب البصرة».

المأساة مستمرة!

تضمنت اتفاقية الجزائر آنفة الذكر ضمان العراق لأمن الأكراد واستقلالهم إلا أنهم تعرضوا للبطش، وزادت معاناتهم بعد حرب الخليج الثانية، ومازالوا يعيشون في ضيق وحرمان، وقد ضيق الخناق عليهم سياسياً واجتماعياً

وَهَجَّرُوا من مناطقهم ، وكان ذلك مقدمة لحصارهم وتصفيتهم جسدياً ، كل ذلك لم يحرك ساكناً لدى ما يسمى بالضمير العالمي والأمم المتحدة ومنظماتها ، وتشرد الشعب الكردي عن دياره ، ولجأ إلى تركيا وإيران حيث الجوع والبرد والضياع.

لماذا فشلت انتفاضتهم الأخيرة؟

حينما ثار الأكراد على حكم طاغوت العراق مؤخراً بعد تنفس الصعداء وتشجيع الغرب لهم ، فشلوا في استثمار انتفاضتهم لأسباب منها:

- * لم يعرف مقاتلوهم استعمال الأسلحة الثقيلة التي استولوا عليها من جيش العراق ، واستمروا في استخدام أسلحتهم الخفيفة.
- * النقص في وقود الدبابات وتموين المقاتلين.
- * مواطن العجز في القيادة والتحكم والاتصالات بين القادة ، وما وجد من وسائل لم يكن فعالاً.
- * فشلهم في حرب المدن حيث لم يتعودوا إلا على حرب العصابات.
- * تردد الغرب في مساعدتهم حتى لا تقوم لهم دولة ، ربما يكون لها أبعاد أخرى غير مرغوب فيها (4).
- * التحرك من خلال رؤية قومية.

ومما يؤسف له أن هذه الألوف من المهاجرين كانت مكاناً مهيأ للغزو النصراني بكافة جمعياته ومنظماته ، أما المسلمون فلم يكن لهم أي دور يذكر سوى جهود بعض الجمعيات الخيرية والشعبية ، وحينما زار الأمين العام لمنظمة حقوق الإنسان «إسلام أباد» في باكستان قال في تقريره عنهم بأنه قام بجولة في مخيم «ديار بكر» التركي ، ووجد الخدمات المقدمة للمهاجرين محدودة ولا تكفي حاجاتهم الضرورية ، وبخاصة أثناء فصل الشتاء ونزول الثلوج فالمهاجرون أعطوا خيمة واحدة لكل أسرة مهما كان عددها ، وبعض الفرش التي لا تؤدي الغرض مع تقديم القليل من الخبز والعلاج ، وقد تحدث المهاجرون للمندوب عن مأساتهم ، وكيف ضربوا بالغازات السامة بواسطة الطائرات ، مما اضطرهم للهرب من الموت المحقق ، تاركين موتاهم وجرحاهم وممتلكاتهم وأراضيهم.

ثم قدمت منظمة حقوق الإنسان مشروعاً عاجلاً للإغاثة بعدما وعدت الحكومة التركية بتقديم التسهيلات لإيصال المساعدات للمنكوبين ، ولكن المأساة مازالت مستمرة وواقعهم مايزال بائساً ، ومازالوا تحت الحماية الدولية من الناحية الأمنية مع اختراقها أحياناً من قبل حاكم العراق ، لكن معاناتهم الاقتصادية والاجتماعية كبيرة ، وحتى تؤدي المعونات دورها لابد أن تعاش مأساتهم المروعة التي نقلت بعضها وكالات الأنباء مع التجاهل للكثير منها لاسيما بعد تحركات الحكومة التركية واضطهادها للأكراد فيها والضغط عليهم وتجريدتهم من حقوقهم الإنسانية ، وبخاصة بعد الصراع بين الحكومة التركية وحزب العمال الكردي ، الذي تسبب في إيجاد المزيد من المعاناة لهذا الشعب المغلوب على أمره (5).

لماذا تسيد العلمانيون الأكراد؟

الملاحظ أن العلمانيين الأكراد هم أولوا قوة وسلطة وبروز ، وذلك لأن الأكراد منذ بداية هذا القرن ابتلوا بما ابتلي به كثير من الشعوب العربية والإسلامية من الجهل بالإسلام الصحيح ، والغزو الثقافي فكثرت فيهم الاتجاهات المنحرفة وعلى رأسها الأحزاب العلمانية والقوميات والتوجهات الصوفية ، التي عزلت الدين عن الحياة ، وعاشت طقوسها بعيداً عن واقع شعبها وضرورة النهوض به.

وأسباب التوجهات العلمانية يمكن أن ترجع إلى ما يلي:

* أن الدول التي عاشوا فيها قامت على نزعات قومية كما في العراق وتركيا مثلاً، مما دفعهم إلى الدعوة إلى القومية الكردية ، مع ملاحظة أن الأكراد من أواخر الشعوب المسلمة التي أخذت بهذه النعرة ، إذ بقيت انتفاضاتهم حتى العشرينيات وهم ينادون بالإسلام كما في ثورة الشيخ «محمود الحفيد».

* قيام الدول والأنظمة الحاكمة بإيقاع أشد أنواع الظلم لهم وهضم حقوقهم مما جعلهم في حالة ثورة وغضب دائمين ، فجاء القوميون ورفعوا شعاراتهم البراقة بدعوى الإنقاذ مع دعايات كاذبة ضد الإسلام ، من هنا جاءت شعبية أولئك العلمانيين من قبل الأكراد ، مع جهلهم بحقيقة هؤلاء وانحرافاتهم الفكرية.

* الدعم الضخم الذي حصلت عليه تلك الأحزاب القومية من الشرق والغرب ، بينما لم يحصل الإسلاميون على شيء وجهودهم المحدودة تقوم على مواردهم الذاتية الضعيفة.

* وسائل الإعلام الغربية والشرقية أبرزت العلمانيين ، وضخمت صورتهم واعتنت بهم ودعمتهم.

* إن الحركات الإسلامية لم تولي عنايتها بكردستان ، ولم تقم بواجبها نحوها في البلاد العربية وتركيا ، ولذلك تأخر قيام كيان خاص بالجماعة الإسلامية هناك (6).

* محاولة إيجاد فرقة وصراع بين الأكراد والعرب عن طريق إحياء القوميات.

الحركة الإسلامية الكردية:

انتبه العلماء والمفكرون الأكراد إلى واقع شعبهم واستغلال العلمانيين لمعاناته ، فقامت جهود دعوية مشكورة منها الجماعة الإسلامية الكردية «بارتيا إسلاميا كردستاني» ، التي تأسست في 11/12/1400 هـ ، وقام المؤسسون بإعلان دستورهم الإسلامي بعنوان «يا شباب كردستان اتحدوا» ، داعين للالتفاف حول الإسلام ، وأن الغاية المنشودة توجيه ضربة قاصمة للاستعمار وأعوانه ، ولها مجلة هي لسان حال الجماعة والناطق الرسمي لها ، وشعارها «الله ربنا والإسلام ديننا ومحمد نبينا» ، وتستلهم مواقفها من واقع الشعب الكردي وفق تصور إسلامي بعيد عن القوميات والعنصريات (7).

ومع انتشار التوجهات الصوفية السائدة في المجتمع الكردي مثل «الطريقة النقشبندية» و«الطريقة القادرية»، إلا أنه برز عدد من العلماء الأكراد المتميزين بعيداً عن التوجهات الصوفية السائدة، فدعوا إلى الإسلام الصحيح، وقاموا بجهود علمية وإعلامية، وأسسوا المجلات الإسلامية المعروفة، ومن أبرزها:

1- نداء الحق: التي يشرف عليها الشيخ «علي القره داغي».

2- حلبجة: والتي يرأس تحريرها «الأستاذ محسن جوامير».

3- جودي: لسان حال الحركة الإسلامية

وفي نظري أن على إخواننا علماء الأكراد بذل المزيد من التوعية للشعب الكردي، ومحاولة إيقاظه من الجهل بإسلامه، لاسيما ما ينتشر فيه من اتجاهات عقدية منحرفة وعلى رأسها «اليزيدية» و«العلوية» و«الصوفية»، وكذلك فضح الاتجاهات القومية والعلمانية السائدة المرتزقة باسم هذه القضية، التي كثيراً ما لمزت الإسلاميين ووصفتهم بالتطرف والإرهاب زوراً وعدواناً، ومن ذلك ما ذكره الصحفي الكردي «هيكوت حكيم» الذي يقول بكل صفاقه: إنه لا يوجد قرية كردية يفهم سكانها بوجود حزب إسلامي سياسي [الحياة العدد 11352].

والأكراد ولله الحمد أكثرية سنية اشتهروا بالشجاعة والكرم، يحبون الإسلام ويعتزون به، ويحترمون رموزه الإسلامية قديماً وحديثاً، ولو وجد الإسلام الصحيح لما تَسَيَّد أمثال البرزاني والطالباني في صفوف الأكراد، ومن قبل حاول القياصرة والروس استغلال هذا الشعب المسلم والاستعانة به ضد العثمانيين، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل.

إن غياب الإسلام الصحيح اليوم هناك جعل بغاث الطير يستنسر، أليس من المخجل أن يسبقنا الشيوعيون والعلمانيون واليهود والنصارى إلى إخواننا الأكراد الذين عاشوا بالإسلام وللإسلام طوال تاريخهم؟

- أين الدعاة إلى الله في مناطق الأكراد؟

- أين الطلاب الأكراد في المعاهد والجامعات الإسلامية؟

- أين الكتب والرسائل والصحف والمجلات المترجمة لكل ما يفهم بلغتهم؟

- أين الجهود لإنشاد الجمعيات الخيرية التي تهتم بهم وتعينهم على أعباء الحياة بدلاً من جمعيات التنصير؟!

ليت الدعاة المسلمون يدركون خطورة الموقف، ويفتحون قلوبهم لإخوانهم هناك، وليت التجار يتنادون إلى فتح المدارس والمستشفيات والمساجد في مناطق الأكراد (8).

الحل لمشكلة الأكراد:

هل الأكراد يريدون دولة مستقلة؟ هل هم انفصاليون؟ الحقيقة أن الأكراد يريدون أن يعيشوا في ظل عزة وكرامة كبقية الشعوب الأخرى، يريدون أن يعترف بوجودهم وبلسانهم وحقوقهم.. هذا ما يريدونه، وحتى المشروع الذي

قدمه الأكراد ليس فيه الرغبة للانفصال وكل ما فيه المطالبة بالحكم الذاتي ليس إلا.

وليس من مصلحتهم المطالبة بإقامة دولة مستقلة لهم في ظل الأوضاع الحالية ، وذلك لما يلي:

* كونهم موزعين على أكثر من دولة ولا يمكن أن تسمح تلك الدول بقيام دولتهم.

* ومع تشجيع ما يسمى النظام العالمي الجديد لحق تقرير المصير لكثير من الشعوب إلا أن مصالح الغرب مع دول المنطقة تجعله لا يؤيد قيام تلك الدولة. * موقع الدولة الداخلي لا يشجع على استقرارها لكونها محاطة بأعدائها مما يطيل معانات شعبها.

* لو قامت تلك الدولة فإن زعماءها سيكونون من العلمانيين اليوم ، الذين نادوا بالتعاون مع الصهاينة جهاراً نهاراً. ولو قدر جدلاً قيام دولة كردية لأي ظرف طارئ فإنها لضمان قيامها ستنفذ المطلوب منها كما يلي (9):

* إقامة علاقات وثيقة مع العدو الصهيوني ، وستكون منطلقاً له ضد أي نهوض عربي أو إسلامي قادم.

* ستنسق مع تركيا للسيطرة على موارد المياه لنهري دجلة والفرات مما قد يؤثر على المدى الطويل على إمداد المنطقة العربية بالمياه.

* ليس من المستبعد أن يعرض العلمانيون الأكراد خدماتهم على الغرب لضرب التوجه الإسلامي في المنطقة وبخاصة وأن موقفهم من الإسلاميين سيء جداً وضربهم لهم مؤخراً معروف.

* فضلاً عن أن تجارب الأكراد المعاصرة في محاولة إقامة دولتهم غير مشجعة وسلبياتها أكثر من إيجابياتها.

إن حل مشكلتهم في الإسلام والإسلام وحده لو طبق. فعلى إخواننا الأكراد في ضوء هذا الواقع المؤلم أن يعطوا ثقتهم للعلماء والمفكرين الإسلاميين بعد فشل العلمانيين في مشاريعهم المعتادة ، وعلى الدعاة والعلماء أن يقوموا بواجب الدعوة للإسلام الصحيح ونبذ الاتجاهات المنحرفة ، والتربية لشعبهم المسلم وتحذيره من الأحزاب العلمانية المرتزقة ، وألا يستعجلوا الصراع مع تلك الأحزاب كما حصل في الآونة الأخيرة، لأن النتائج معروفة سلفاً فهم أقل عدة وعتاداً من تلك الأحزاب العلمانية. فهل يفتن أئمتنا الأكراد لهذه المسألة ويقوموا بواجباتهم المفترضة؟! عسى ولعل.

والله نسأل لهم النصر والعز والتمكين تحت راية التوحيد ، والله غالب على أمره.

هوامش:

- (1) الإصلاح ، العدد 271 ، بتصرف من مقال عن القضية الكردية للأستاذ عبد الله عبدالرحمن.
 - (2) اتهم الملا (مصطفى البرزاني) باتهامات كثيرة ، وهناك رأي آخر منصف ، انظر (علماء الأكراد).
 - (3) مجلة المجتمع «لقاء مع الشيخ الدكتور/ علي محيي الدين القره داغي» ، العدد 1052 (بتصرف).
 - (4) مجلة «قراءات سياسية» ، العدد 1/3 عام 93 ، بتصرف من مقالة «المسألة الكردية».
 - (5) الشعب الكردي المسلم (بتصرف).
 - (6) المجتمع ، العدد 1052 (بتصرف).
 - (7) المجتمع ، العدد 739 بتصرف ، وانظر تقويم لهذه الجماعة في كتاب المذاهب والأفكار المعاصرة للأستاذ محمد الحسن.
 - (8) مؤامرات الدويلات الطائفية ، محمد عبدالغني النواوي (بتصرف).
 - (9) مجلة «قراءات سياسية» (بتصرف).
- انظر حواشي المقالين المنشورين في مجلة «قراءات سياسية» السابقة الذكر وما يحفلان به من مراجع أجنبية كثيرة ، وكذلك كتاب «الأكراد شعب مهضوم» لديفيد داول ، انظر عرضاً له في مجلة «المجلة» العدد 639 ، وبعض المراجع المشار لها في هذا المقال ، لتعطي فكرة عن الأكراد والواجب حيالهم.
- انظر ما يتعرض له أطفال الأكراد من تنصير ، وكذلك دور المرأة الكردية وحاجتها للتوعية الإسلامية في كتاب «من للأكراد؟» لأحمد إسلام.

اعرف عدوك

دولة يهود من الداخل

صالح العويشق

لقد كان محور تفكير «يهود» على مر القرون ينصب على أمرين مهمين الأول المال حيث إنهم قد أشربوا حبه كما قال تعالى: ((وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم)) (1) ، أما الثاني فهو العودة إلى أرض كنعان ، وإذا كانت الأفكار الصهيونية الداعية للعودة قد ظهرت ممثلة في حركة سياسية في القرن التاسع عشر الميلادي ، فإن جذورها الفكرية تعود إلى أيام النفي إلى بابل ، ولقد نجحت الحركة الصهيونية في تجميع «يهود» وإقامة دولة لهم في فلسطين ، ولكن آثار فترة الشتات الطويلة تبدو واضحة للعيان في التركيبة الاجتماعية والدينية والسياسية لمجتمعهم اليوم.

وفيما يلي نبذة موجزة توضح التناقضات التي يعيشها «يهود» مصداقاً لقوله تعالى:

((لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)) (2).

النظام الاجتماعي:

المجتمع اليهودي: مكون من خليط متنافر من الجماعات ذات الاتجاهات المتنافرة، والأصول المتباعدة، والفروقات الثقافية والعنصرية؛ لذا كان من الطبيعي أن يكون لكل جماعة منها تأثيرها على الواقع السياسي للعدو. والهدف من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على تلك الفروقات والتناقضات التي تضرب أطناها في تركيبة ذلك المجتمع.

ويمكن تقسيم المجتمع في دولة يهود إلى قسمين

رئيسيين:

1- الإشكناز: وهم يهود استقروا في شمال أوروبا وشرقها، وقد تأثروا بنمط الحياة الغربية، ويختلفون عن غيرهم في بعض نصوص الصلاة وبعض طقوس الأعياد، وهم أقطاب الصهيونية الحديثة. (3).

2- السفارديم (السفارد): وهم اليهود الذين استقروا في حوض البحر المتوسط وفي الوطن العربي وإيران، وكان للغة العربية تأثير قوي على لغتهم الأم (4).

ويمثل الإشكناز أقلية إلا أنهم هم المتنفذون في الكيان الصهيوني، فنظرة إلى أعضاء الكنيست (البرلمان) أو أعضاء الحكومة، أو حتى رؤسائها تجد هذا الأمر واضحاً:

* حكومات العدو حتى 1984م قد ضمت 6 وزراء شرقيين من بين 58 وزيراً، حيث شغلوا وزارتي البوليس والبريد غالباً (5).

* لم يرأس الحكومة قط يهودي من السفارديم.

* أما رؤساء الدولة فكانوا كلهم إشكناز ما عدا واحد من السفارديم، مع العلم أن منصب رئيس الدولة شرفي.

* لا يمثل السفارد سوى 9 % فقط من الوظائف القيادية في المجال الاقتصادي (6).

وعلى الرغم من أن اليهود الشرقيين يشكلون غالبية السكان، إلا أن اليهود الإشكناز يحاولون منذ زمن بعيد المحافظة على الوجه الغربي الحضاري للدولة.

يقول «إسحاق دويتشر»: «يوجد نوع من العداوة بين اليهود الشرقيين والغربيين، إلا أنني أعتقد شخصياً أن اليهود الغربيين سوف يصهرون في النهاية الشرقيين؛ لأنهم يمثلون الحضارة الأرقى التي تنتصر في العادة على الحضارة الأدنى» (7).

ومع أن الهوة بين المجتمعين واسعة جداً، إلا أنها تزداد اتساعاً عند الحديث عن يهود «الفلاشا» (8)، فإننا نجد معظمهم يعاني من العزلة والوحدة في

المجتمع الصهيوني، ويتعمد اليهود الآخرون استخدام لفظ (كوشي) بمعنى (العبيد) في التعامل مع الفلاشا، مما يزيد من عمق الهوة الفاصلة بين هاتين الطبقتين.

ويصور بعض ما يعانيه يهود الفلاشا قول أحدهم: «لقد كُنّا في أثيوبيا بشراً أما هنا فليسا سوى حمير» (9)، وفي الجهة المقابلة يقول رئيس وزراء إسرائيل سابقاً (ليفى أشكول): «إن كل المهاجرين متساوون، إنما هنالك مهاجرون متساوون أكثر» (10).

أما الحديث عن الاختلافات المذهبية بين اليهود فهو حديث ذو شجون وسأخذ بطرف منه هنا مع الإشارة إلى أن بعض تلك المذاهب قد اندثر وفيما يلي أهم المذاهب اليهودية:

1- الغريزيون: وهم (الربانيون) يلقبون أنفسهم «الحسيديم» أي الأتقياء ويعتقدون بأن عيسى عليه السلام زنديق! وإن كانوا معتقدين بظهور مسيح منتظر، كما أنهم يوجهون العامة إلى احتقار الأمم والأديان والأجناس الأخرى (11).

2- القناؤون: شعبة من الغريزيين إلا أنهم يمتازون بالتطرف والعنف ويتمسكون بفكرة الوطن اليهودي الحر المستقل، وهم يفضلون الموت على أن يبايعوا حاكماً أجنبياً، ومع أنها اندثرت كجماعة إلا أن أفكارها تسربت إلى الفكر الصهيوني الحديث (12).

3- القراؤون: من أشد أعداء الغريزيين، ويرون أن الربانيين قد استولوا على مقدسات إسرائيل، ومن الملفت للنظر وجود التشابه بين المنحى الفلسفي لهذه الطائفة مع المنحى الفلسفي عند المعتزلة (13).

4- الإصلاحيون: يميلون إلى التساهل في أخذ الأحكام، وينكرون التوراة كمصدر، وقد صرفوا النظر عن إعادة بناء الهيكل المزعوم، كما أنهم أنكروا أن يكون الخلاص معناه إقامة دولة في فلسطين، ومما يروونه أن اليهودية دين فقط، وليست جنسية (14).

5- المارانوس: يعتبرهم المتأخرون من علماء اليهود خارجين عن الدين اليهودي، وكانوا في أسبانيا مدة عيشهم يظهرون النصرانية، ويبطنون اليهودية (13).

6- الصهيونية: هي حركة التحرر الوطني اليهودي، ومن مضامينها العودة إلى «أرض الميعاد» وإقامة الدولة اليهودية عليها، ويمكن اعتبارها حركة سياسية ترفع شعاراً دينياً مع تبني العلمانية في نظم الدولة، ومن أهم أهدافها:

* المحافظة على تميز العنصر اليهودي.

* العمل من أجل العودة إلى «أرض الميعاد».

* السيطرة على جميع شعوب الأرض وتسخيرها لخدمة الجنس اليهودي (16).

7 - الفلاشا: طائفة من اليهود على أساس مذهبي وعرقي، حيث إنهم يسكنون شرق القارة الإفريقية وفي الحبشة بخاصة، كما أنهم لا يعرفون اللغة

العبرية ولا يؤمنون بالمشنا ولا بالتلمود ، إلا أنهم يؤمنون برسالة موسى عليه السلام ومن بعده وبالكتاب المقدس، والجدير بالذكر أنه لا يوجد أي دليل قوي يبين مبدأ نشأتهم ، وسبب اعتناقهم للدين اليهودي (17).

النظام السياسي لدولة يهود:

إن من الأمور الملفتة للانتباه في النظام السياسي عندهم هو ذلك العدد الهائل من الأحزاب السياسية (28) حزباً تجتمع فيما بينها في تكتلات ذات أهداف قد تتوافق في بعض خطوطها العريضة ، ويرجع بعض الباحثين ذلك التعدد إلى الأسباب التالية:

- 1- عدم انتمائهم إلى تراث تاريخي واحد.
- 2- وجود اختلافات عقائدية بين الصهيونيين أنفسهم، تتفاوت من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.
- 3- نزعة كل فريق منهم إلى التكتل مع أبناء وطنه القديم الذي هاجر منه (18).

والواقع أن تعدد الأحزاب ليس إلا انعكاساً للتركيبة المتناقضة لذلك المجتمع والتفاوت الظاهر بين مختلف فئاته.

ويمكن تصنيف الأحزاب عندهم على النحو التالي: «التجمع العمالي» وفيه حزب العمل ، الأحزاب اليمينية (الليكود) ، الأحزاب الدينية ، الأحزاب الشيوعية.

وهناك بعض الكتاب يرى تقسيمات وتصنيفات أخرى للأحزاب السابقة ، وسأكتفي هنا بالإشارة إلى أهم برامج وأهداف بعض الأحزاب والتجمعات السياسية اليهودية الرئيسة.

أهداف حزب العمل:

السلام الحقيقي والدائم بين دولتهم وجاراتها ، تجميع الشعب اليهودي في «بلاده»، القدس الموحدة هي عاصمة دولتهم ، معارضة قيام دولة فلسطينية في المنطقة الواقعة بين إسرائيل والأردن.

أهداف حزب الليكود:

منع إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، القدس عاصمة دولتهم الموحدة ، ضمان قوة الدولة وتعزيز أمنها وإقرار السلام مع جيرانها شرق الأردن هو جزء من أرض دولتهم التاريخية.

الأحزاب الدينية:

بالرغم من أن كثيراً من اليهود غير متبعين لأحكام الدين اليهودي ، إلا أنهم يتأثرون بالمطالب ذات الصبغة الدينية التي تطالب بها هذه الأحزاب (19). والأحزاب الدينية قديمة ومن تطلعاتها:

* يولي حزب (أغودات) المسائل الدينية الاهتمام الأساس في نشاطه السياسي ، ويربط تأييده للحكومة بمدى استعدادها لتطبيق بعض القوانين الدينية اليهودية.

* أما حزب (المفدال) فهو لن يُسَلَّم أي جزء من «أرض إسرائيل» المزعومة إلى حكم أجنبي، وبين النهر والبحر تقوم دولة واحدة هي إسرائيل وعاصمتها الموحدة القدس، كما يسعى إلى سلام بين إسرائيل وجيرانها.

الأحزاب الشيوعية:

ومنها حزب (حداش) الذي يتكون من حزب (راكاح) ومنظمة الفهود السود ، ومما يدعو إليه تحقيق السلام العادل في نظره، وذلك بانسحاب إسرائيل من جميع المناطق التي احتلت عام 1967م بالإضافة إلى الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، وإقامة دولة له في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية (20). ومن إفرازات الصراع الطائفي اليهودي ظهر حزب (حركة شاس) المسمى اتحاد السفارديم حراس التوراة ، وتركز هذه الحركة اهتمامها على المجالات الدينية كما أن هذه الحركة ترى أن فلسطين كلها (لشعب إسرائيل) بحكم وعد التوراة.

ونستطيع ملاحظة مدى التشابه بين برامج الأحزاب الإسرائيلية وبخاصة فيما يخص العلاقة مع الدول العربية. والجدير بالذكر أن تلك الأحزاب السياسية تتجه دائماً إلى التكتل في وجه أي خطر خارجي بغض النظر عن الاختلافات الموجودة حال السلم (21). وفي ختام الحديث عن الأحزاب الإسرائيلية أشير إلى ما قاله عضو حزب العمل السابق (أبا إيبان): «إن إسرائيل الآن في مفترق الطرق ، فإما أن تتفاوض وتبادل الأرض بالسلام، وتحافظ على حلم إقامة الدولة اليهودية، وإما أن تتخلى عن هذا الحلم، وتصبح دولة قمعية مستبدة يحكم مصيرها صراع داخلي رهيب» (22).

الهوامش:

- (1) سورة البقرة: 93.
- (2) سورة الحشر: 14.
- (3) الفكر اليهودي ص 202.
- (4) الفكر اليهودي ص 202 204.
- (5) حكم الإشكنازيين ، نقلاً عن «إسرائيل من الداخل» ص 57.
- (6) الأيدلوجية الصهيونية ، ج 2 ص 32 36.
- (7) اليهودي واللايهودي ص 77.
- (8) وهم يهود الحبشة ويختلفون عن الآخرين بعباداتهم وبعض معتقداتهم.
- (9) يهود الفلاشا ص 190، 191.
- (10) إسرائيل من الداخل ص 57.
- (11) الفكر الديني اليهودي ص 210-213 ، اليهود تاريخ وعقيدة ص 204-205.
- (12) الفكر الديني اليهودي ص 217-220.
- (13) الفكر الديني اليهودي ص 237-256 ، اليهود تاريخ وعقيدة ص 208.

- (14) الفكر الديني اليهودي ص 264 - 269.
 - (15) الفكر الديني اليهودي ص 259 - 260.
 - (16) الصهيونية: نشأتها وتنظيماتها ص 26 - 30.
 - (17) انظر يهود الفلاشا ، الفكر الديني اليهودي ص 270.
 - (18) النظام السياسي الإسرائيلي ص 335 - 347 ، الصهيونية جذورها ص 131 - 132 ، نظام الحكم في إسرائيل ص 71.
 - (19) رسالة د. مونييه ، نقلاً عن نظام الحكم في إسرائيل ص 119.
 - (20) انظر: النظام السياسي الإسرائيلي ص 357 - 499 ، نظام الحكم في إسرائيل ص 81 - 148.
 - (21) نظام الحكم في إسرائيل ص 80.
 - (22) إسرائيل من الداخل ص 5..
- انظر إلى كتاب «التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل»، بحث «هلدا الصايغ» رقم 85 من دراسات فلسطينية ، مركز أبحاث م.ت.ف. ، 1971 م، والذي يشكل فضحاً للمساواة المزعومة عندهم وأنه لا أمل في حل هذه المشكلة. «البيان»

مقال

«الاستغراب»*

محاولة جادة لتحسين الهوية

د. أحمد بن محمد العيسى

ليس هناك حاجة كبيرة لايضاح طبيعة العلاقة القائمة بين الشرق الإسلامي ، والغرب (النصراني العلماني) من الناحية العسكرية والسياسية منذ أن تمكنت الدولة الإسلامية الوليدة من تهديد وجود الدولة الرومانية في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ومن ثم تهديد أوروبا ذاتها. لقد كان أساس هذه العلاقة ولا يزال ، الصراع والصدام العسكري. وعلى الرغم من أن أهداف الفريقين لم تكن واحدة ، إلا أن كل فريق يرى في الفريق الآخر منافساً قوياً وعدواً لدوداً يسعى إلى فرض سيطرته ، وفرض نظامه العقدي والحضاري في منطقته وبين سكانه. والمسلمون في عصورهم الزاهية كانوا يرون الامتداد الطبيعي للدعوة والجهاد يسير في الاتجاهين: الشرق من بلاد فارس والهند وآسيا الوسطى إلى جنوب شرق آسيا ، وفي الغرب من المغرب العربي والأندلس إلى جنوب أوروبا وشرقها. والغرب كان يرى الامتداد الطبيعي لمصالحه وسيطرة مملكاته النصرانية (في العصور الوسطى) ثم دوله الاستعمارية وشركاته المتعددة الجنسيات ، في العصور الحديثة يسير في اتجاه الشرق ، ولابد أن يخترق العالم الإسلامي بأكمله حتى يصل إلى الشرق الأقصى.

ورافق علاقة الصدام العسكري والسياسي ، بعد حضاري وثقافي شديد الوضوح والاستقطاب ، فكل فريق منتصر يقوم بتثبيت أركان نظامه العقائدي ورؤاه الحضارية للكون والإنسان في المناطق «المحررة» ، وغالباً ما يقوم الفريق المنهزم كما يقرر ابن خلدون بتقليد الفريق المنتصر «ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدأً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه ، في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله..»(1).

ولهذا فلو تتبعنا العلاقة الثقافية بين المعسكرين منذ عصر صدر الإسلام ، وحتى اليوم نجد أنها تميزت بمراحل ثقافية وتاريخية متميزة:

1- في أول عصور الاصطدام الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني ، لم يكن للدولة الرومانية المنهزمة أي فعل حضاري متميز ، عدا بعض ما نقله المسلمون من أدواتهم الثقافية مثل حركة تعريب الدواوين وسك العملات.. ولهذا فقد دخل سكان البلاد التي فتحها المسلمون في الدين الحنيف دون مقاومة كبيرة.. ولكن حصل بُعيد ذلك وفي أواخر عهد الدولة الأموية ، ثم تطور في عهد الدولة العباسية ، ماسمي في التاريخ الإسلامي «بحركة الترجمة» ، حيث تُرجمت العلوم اليونانية ، مثل الفلسفة

والرياضيات والفلك ، إلى العربية. وعلى الرغم من أن هذه الحركة قد أثرت تأثيراً مهماً في الفكر الإسلامي حيث ظهرت بعض المذاهب «العقلانية» المتأثرة بالفلسفة اليونانية مثل مذهب المعتزلة ، إلا أن هذا التأثير كان تأثيراً ذاتياً تم بمبادرة من المسلمين ، ولم يكن فعلاً ثقافياً مفروضاً من الخارج.

2- وعندما كان المسلمون يمثلون القمة في الفعل الحضاري والتفوق العسكري ، كان لزاماً أن ينتقل التأثير إلى مراكز الضعف الثقافي في مختلف البلاد التي احتكت بالعالم الإسلامي ، وكان الغرب أحد هذه المراكز ، فحدث أن حصل بعد الحروب الصليبية ، رد فعل قوي في الغرب من جراء الاصطدام بالحضارة الإسلامية ومنجزاتها سواء أكان ذلك في الشرق الإسلامي أم في بلاد الأندلس التي كانت تعيش في الناحية الأخرى أزهى عصورها حضارياً.. ولهذا حدث ما يسمى بالاستيقاظ والانتباه الغربي ، قبل ما يسمى «بعصر النهضة» الأوروبية. وبدأت تسير بعد ذلك عملية البناء الثقافي في الغرب في اتجاهين: الأول: ببعث التراث الثقافي اليوناني والروماني بشكل مكثف ، حتى يكون الركيزة الأساسية للنهضة، والثاني: كان لابد من صد هذا الفكر الغازي وجعله غريباً بين الناس، إما بتجاهله، أو بإيجاد المراجع العلمية التي تستطيع تفسير هذا الفكر (الغريب) وتصويره للناس بما لا يتعارض مع المقومات الأساسية التي سار بها الاتجاه الأول. أما كيف يتم تجاهل حدثاً ثقافياً بارزاً، وفعلاً حضارياً يطرُق الباب ، فتحدثنا عنه المستشرقة «زيفريد هونكة» بقولها: «أما أن تكون ثمة شعوباً أخرى ، وأطراف من الأرض لها شأن عظيم في التاريخ ، بل وفي تاريخنا الغربي خاصة ، فذلك أمرٌ لم يعد بالإمكان تجاهله في حاضر قد طاول النجوم عظمة. لأجل ذلك ، يخيل إلي أن الوقت قد حان للتحدث عن شعب قد أثر بقوة على مجرى الأحداث العالمية ، ويدين له الغرب ، كما تدين له الإنسانية كافة بالشيء الكثير. وعلى الرغم من ذلك فإن من يتصفح مئة كتاب تاريخي ، لا يجد اسماً لذلك الشعب في ثمانية وتسعين منها. وحتى هذا اليوم ، فإن تاريخ العالم ، بل وتاريخ الآداب والفنون والعلوم لا يبدأ بالنسبة إلى الإنسان الغربي وتلميذ المدرسة إلا بمصر القديمة وبابل يدهاً خاطفاً وسريعاً ، ثم يتوسع ويتشعب ببلاد الإغريق ورومة ، ماراً مروراً عابراً ببيزنطية ، ومنتقلاً إلى القرون الوسطى المسيحية، لينتهي منها آخر الأمر، بالعصور الحديثة..» (2)

كان هذا التجاهل جزءاً من الاستراتيجية الغربية في صد الفكر الإسلامي أما إذا اضطر الغرب إلى التعامل مع بلاد الإسلام وخاصة منذ عصر «النهضة» الغربية ، فكان لابد من إيجاد وسيلة أخرى ، وكانت هذه الوسيلة هي ما يسمى اليوم بـ «الاستشراق». لقد كان للاستشراق مهمة تاريخية واضحة ، وهي تحصين الهوية الثقافية الأوروبية عن طريق تكوين المراجع العلمية الغربية التي تستطيع أن تحدث وتناقش بطريقة علمية لا تدع مجالاً للاختراق الثقافي من الخارج. (يمكن الاطلاع على ما كتبه الأستاذ محمود محمد شاكر

في بحثه المتميز: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» عن تاريخ الاستشراق (وأهدافه). ويؤكد إدوارد سعيد في كتابه الهام «الاستشراق» حقيقة أن الدراسات الاستشراقية لم يكن هدفها في الأساس معرفة الشرق على حقيقته ، ولهذا فهو يقول: «أنا شخصياً أعتقد أن قيمة الاستشراق على وجه الخصوص ، هي في كونه علامة على السلطة الأوربية الأطلنطية على الشرق، أكثر من كونه بحث حقيقي عن الشرق، (وهذا ما يدعيه شكله الأكاديمي)... ولذلك فإن الاستشراق هو بعد هام للثقافة الفكرية السياسية الحديثة ، ولهذا فليس له علاقة كبيرة بالشرق، أكثر من علاقته بعالمنا «نحن».. وبطريقة ثابتة فإن الاستشراق يعتمد في استراتيجيته على التفوق المركزي الذي يضع الغربي في مجموعة من العلاقات المحتملة مع الشرق ، ولكن بدون أن تفقده دائماً اليد العليا...»(3).

وأصبح «الاستشراق» من هذا المنطلق يمثل رأس الحربة في توجه سياسات الغرب الاستعمارية منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وحتى الآن حيث لا يزال يمارس نفس الدور تقريباً من خلال مراكز الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية ، ومن خلال مراكز الدراسات الاستراتيجية التي ترسم السياسات الغربية في مجالات متعددة.

3- أما المرحلة الثقافية الثالثة التي تميز العلاقة الحضارية بين الغرب والشرق الإسلامي فتتمثل في مرحلة «التغريب» التي بدأت منذ بداية عصر الاستعمار الحديث للعالم الإسلامي من قبل أوربا ، وبالتحديد من غزو نابليون مصر عام 1798 م. وقد استمر «التغريب» سمة ثقافية بارزة حتى بعد أن اضطر الغرب إلى تقويض خيامه العسكرية والرحيل. أما كيف حدث هذا؟ فيحدثنا الكاتب الفرنسي (ك موريل) بسخرية عن تلك الفترة فترة تصفية الاستعمار: «إذا أرخنا للمعارك فقد أخفق الاستعمار. ويكفي أن نؤرخ للعقليات لتبين أننا إزاء أعظم نجاح في كل العصور. إن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار.. لقد انتقل البيض إلى الكواليس ، لكنهم لا يزالون مخرجي العرض المسرحي...»(4).

ويشير المؤرخ الأمريكي (دافيد فرومكين) عن تلك الحقيقة في كتابه (سلام ما بعد سلام) بقوله: «كان أمراً مألوفاً في بدايات القرن العشرين ، عندما كان تشرشل وضيوفه يمضون الوقت في رحلتهم على متن اليخت أنشانترس ، أن يفترض المرء أن الشعوب الأوربية ستواصل القيام بدور السيطرة الذي تمارسه في الشؤون العالمية إلى أبعد ما تستطيع البصيرة أن ترى. وكان من الشائع أيضاً الافتراض أن الشعوب الأوربية بعد أن أنجزت معظم ما اعتبره كثيرون رسالة الغرب التاريخية أي تحديد المصير السياسي للشعوب الأخرى على الكرة الأرضية فلا بد أنها متممة هذه الرسالة. وكانت بلدان الشرق الأوسط بارزة بين البلدان التي كان على الأوربيين التعامل معها ، إذ هي بين قلة من المناطق المتبقية علي كوكبنا دون أن يعاد تكوين شكلها اجتماعياً وثقافياً وسياسياً على صورة أوروبا ومثالها...»(5). إذن

كان التغريب الثقافي والفكري (على صورة أوروبا ومثالها) هدف من أهداف الاستعمار العسكري والسيبريالية على الشرق الإسلامي. وبالفعل تمكنت أوروبا من تحويل اتجاه طلائع «المثقفين العرب» إلى الفكر والفلسفة الأوربية لتبدأ «حركة الترجمة» الثانية ، ولكنها هذه المرة حركة مفروضة من الخارج ترى في أوروبا المثال النموذج ، وترى في التراث الإسلامي التأخر والرجعية ، وأصبحت تنظر للحضارة والثقافة من منظار غربي لا أثر فيه للتميز الحضاري ، بل أن «نسير سيرة الأوربيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يُعاب ، وأن نشعر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها ، ونقوم الأشياء كما يقومها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها...»(6).

الحقيقة أن التغريب يجري على دم وساق ، ويواجه العالم الإسلامي وبقيّة دول ما يسمى (بالعالم الثالث) ، بشكل لم يسبق له مثيل ، خطر تفتيت الهوية الثقافية والاجتماعية. وعلى الرغم من أن مسيرة التغريب قد بدأت منذ وقت طويل ، إلا أنها بدأت تأخذ أشكالاً مختلفة وأكثر خطورة منذ سقوط الشيوعية ، وانفراد القوة الأخرى بالمرسح العالمي. فقد سيطرت المنظومة الليبرالية الرأسمالية على المنظمات الدولية (الأمم المتحدة، صندوق، اليونسكو، منظمات الإغاثة العالمية، وأخيراً منظمة التجارة العالمية «الجات»..) وتمكنت عن طريق هذه السيطرة من فرض القوانين الدولية التي تراعي نظامها ومصالحها. كما سيطرت المنظومة الليبرالية الرأسمالية على وسائل الإتصال الحديثة وتمكنت بفضل التقدم التقني الهائل من الوصول بقيمتها ومعتقداتها إلى جميع بقاع العالم تقريباً. (ينطلق فيض «ثقافي» بمعنى فريد من بلدان المركز الغرب ويحتاج الكرة الأرضية). تتدفق صور ، كلمات ، قيم أخلاقية ، قواعد قانونية ، اصطلاحات سياسية ، معايير كفاءة ، من الوحدات المبدعة إلى بلدان العالم الثالث من خلال وسائل الإعلام (صحف، إذاعات ، تلفزيونات ، أفلام، كتب، أسطوانات، فيدو). ويتركز الجانب الأكبر من الإنتاج العالمي «للعلامات» في الشمال، أو يصنع في معامل يسيطر عليها، أو حسب معايير وموضاته. وسوق المعلومات شبه احتكار لاربع وكالات: أسوشيتيد برس وينايتد برس (الولايات المتحدة) ، رويتر (بريطانيا العظمى) ، فرانس برس. وتشترك في هذه الوكالات كافة إذاعات العالم ، كافة شبكات تلفزيون العالم ، كافة صحف العالم. ويتدفق 65% من المعلومات العالمية من الولايات المتحدة. ومن 30 إلى 70% من البث التلفزيوني مستورد من المركز.. وهذا الفيض من المعلومات لا يمكنه إلا أن «يشكل» رغبات وحاجات المستهلكين ، أشكال سلوكهم ، عقلياتهم ، مناهج تعليمهم ، أنماط حياتهم» (7).

ولعل من مظاهر هذه السيطرة تفشي الأنماط الثقافية الاستهلاكية في المجتمعات الإسلامية ، ومنها طغيان النزعة الفردية وحب الذات في العمل مع الآخرين ، وأيضاً الاستسلام للعامل الدعائي في ترويج المنتجات ، وكذلك

إتجاه الأفراد وخاصة الشباب إلى الثقافة السطحية السهلة ، فتجد الشاب لا يستطيع أن يجلس ليقرز كتاباً كاملاً ، بل يريد الكتاب مختصراً في صفحة أو صفحتين.. وهكذا ، فنحن كما يقولون في (زمن السرعة) ومنها أيضاً تفشي ظاهرة المأكولات السريعة ، نتيجة لانتشار هذه النوعية من المطاعم والمتاجر ، وكل هذا يعكس الانماط الاجتماعية السائدة في بلاد الغرب وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

وربما كان من أخطر مظاهر التغريب في العلاقات الولية أن أصبح الاقتصاد والقوة المالية هي العامل الأساسي في علاقات وتحالفات الدول ، فلا قيم ولا ثقافة ، ولا مبادئ. وهذا يؤكد المفكر والاقتصادي الفرنسي (جاك أتالي) بقوله: «إن البشرية تدخل في مرحلة من الزمن جديدة تماماً التاريخ يتسارع ، التكتلات تتفكك ، الديمقراطية تحقق انتصارات جديدة ، ممثلون ورهانات جديدة تبرز على المسرح ، أمام هذه التحولات التي تبدو في ظاهرها مبعثرة لا يربط فيما بينها أي رابط ، يسود لدى المراقبين الحذر من النماذج الموجودة ، ويغلب الاستسلام لمزاج القوي العديدة التي تحرك كوكبنا ، كما يغلب الميل إلى إعطاء السوق دوراً حاسماً في كل شيء بما في ذلك دور الحكم في مصير الثقافات..» (8).

الاستغراب: هل يكون المحطة الرابعة؟

ولمواجهة هذا المد التغريبي الهائل ، لابد أولاً من إدراك خطورة العلاقات الغير متكافئة بين الفريقين، ثم باتخاذ استراتيجية تعتمد على محورين أساسيين، أولهما: بعث العقيدة الإسلامية الصحيحة والفكر الإسلامي الأصيل ونشره بين الناس ليكون الركيزة الأساسية للنهضة ، ثم قيام مراجع علمية إسلامية تدرس الغرب ، وتفهم منطلقاته وأهدافه ونظم حياته الثقافية والفكرية، لتكون الحاجز الأول لتحصين الهوية الإسلامية، وهذا ما نسميه بـ «الاستغراب». (وهذين المحورين شبيهين بالطريقتين اللتين سلكهما الغرب عند مواجهته للحضارة الإسلامية ، وعندما كان في بداية نهضته الحالية. وليس في هذا تقليداً للغرب، بل هما فيما أحسب سنة من سنن الله في الكون).

وعلى الرغم من أن الصحوة الإسلامية المعاصرة قد أدركت أهمية الشق الأول من هذه الاستراتيجية ، فبدأت بالاهتمام بالعلم الشرعي ، وتصحيح المعتقدات، ونشر كتب العقيدة والعلوم الإسلامية ، بل لا يزال كثير من المفكرين والمنظرين للصحوة ، لا يدركون خطورة المرحلة الحالية ، ويحتفظون بأفكار سطحية عن الغرب ، وعن علاقاته بالمجتمعات الإسلامية ، وذلك لغياب المراجع التي يستطيع أن تشكل الرؤية الإسلامية عن الغرب ، بعيداً عن تنظيرات فلاسفة «التغريب» المعاصرين (ولا تقل عنها سواً تنظيرات احجاب الفكر الإسلامي المستنير! عن طبيعة العلاقة بين الغرب في ظل ظروف التغريب الشامل).

إن الاستغراب الذي نشير إليه هنا، ينبغي أن ينطلق من أسس واضحة ليحقق بعض الأهداف الهامة:

- 1- استثمار نجاح الصحوّة الإسلامية في كسر حدة الانبهار بالغرب ، حيث بدأ كثير من الشباب المسلم يعيد تقويمه للتقدم التقني الغربي. وحتى يتم تعميق الاعتداد بالنفس ، والشعور بالانتماء للأمة والتميز الحضاري والفكري ، ينبغي نقض وتعرية مفاهيم الغرب وقيمته التي يبتها في العالم (الديمقراطية ، الحداثة ، الثقافة العالمية.. الخ) ولن يتم هذا النقض إلا بمعرفة أسس هذه المفاهيم وتناقضاتها على مستوى التنظير ، وعلى مستوى التطبيق.
 - 2- عند إيجاد المراجع الإسلامية الذين يمكن أن نطلق عليهم بـ «المشتغرين» سوف يتضاءل تأثير (المتغربين) من أبناء المسلمين ، الذين يرون في الغرب ، النموذج والمثال ، في الفكر والأدب والاقتصاد وقيم العمل ، وقيم السياحة ، والعلاقات الاجتماعية.. الخ ، ولن تحتاج الأمة إلى عناء كبير لكشف شبهاتهم التنظيرية ، إذ أن لديها من يعرف فكر (القوم) ومصالحه ومخططاته.
 - 3- وعندما تتمكن من دراسة الغرب دراسة واعية في سبيل تحصين هوية الأمة ، والحفاظ على مصالحها ، سوف نستطيع دراسة تأثير التطورات التي تحدث في الغرب في جميع المستويات السياسية ، والاقتصادية ، والفكرية ، والاجتماعية ، على ثقافة الأمة وعلى مصالحها ومستقبلها. إن غياب الروية الحقيقية لما يجري في الغرب تجعلنا نعيش في ظروف وأحوال ليست من صنعنا ، ولا نعرف كيف حدثت ، ولماذا ، ومن المستفيد منها؟
- إن الاستغراب هو محاولة جادة لدراسة الغرب ، ليس بهدف الترف الثقافي والفكري كما حصل عندما ترجمت الفلسفة اليونانية في القرون الإسلامية الزاهية وإنما لتحقيق مصالح في غاية الأهمية ومنها في المقام الأول تحصين الهوية الإسلامية في ظل ظروف التغريب الجامح الذي يجري تطبيقه علي أكثر من صعيد.

هوامش:

- * تناول مصطلح الاستغراب بالبحث والدراسة د/ حسن حنفي في كتابه المعنون بـ (مقدمة في علم الاستغراب) ، وهذا المقال لا يعتمد على ما طرح في الكتاب المذكور بل هو طرح مستقل كما ترى للموضوع ، وكاتب المقال لا يتفق مع د/ حسن حنفي في كثير من منطلقاته الفكرية سواء ما هو مقروء منها في كتابه المشار إليه أو في كتبه الأخرى.
- (1) بن خلدون ، المقدمة ، دار القلم بيروت 1878 ، ص 147.
 - (2) زيفريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة: فاروق بيضون ، وكما دسوقي، منشورات دار الآفاق الحديثة بيروت، الطبعة الخامسة 1401هـ / 1981م. ص 11.
 - (3) ادوارد سعيد ، الاستشراق ، (الطبعة الانجليزية) ، 1979 ، ص 6 وما بعدها.

- (4) ك. موريك ، 1985 م. نقلاً من كتاب سيرج لاتوش ، «تغريب العالم» ، ترجمة: خليل كلفت ، دار العالم الثالث ، 1992م ، ص7.
- (5) دافيد فرومكين ، سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط، ترجمة: أسعد كامل الياس ، رياض الريس للكتب والنشر ، 1992م ، ص22.
- (6) طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، ص44.
- (7) سيرج لاتوش، «تغريب العالم»، ترجمة: خليل كلفت، دار العالم الثالث، 1992م، ص27.
- (8) جاك أتالي ، آفاق المستقبل ، ترجمة: محمد زكريا إسماعيل ، دار العلم للملايين ، 1991م ، ص35

من ثمار المنتدى

أنشطة المنتدى الإسلامي

التحرير

سبق الحديث عن بعض مشاريع «المنتدى الإسلامي» مثل: «كفالة الدعاة، وبرنامج شهر رمضان الماضي ، ومشروع مكافحة العمى بدولة تشاد» ، وفي هذا العدد نواصل الحديث عن مزيد من المشاريع كما يلي:

البيان

رابعاً - الدورات والملتقيات العلمية:

ينتشر الدعاة المحليون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وتختلف قدراتهم الدعوية، ومستوياتهم العلمية ، وبسبب غياب العلماء وطلاب العلم وانهماك كثير من الدعاة في أمورهم الخاصة ، أصبح الضعف العلمي سمة سائدة عند كثير من الدعاة. والعلم الشرعي هو الأساس في العمل الدعوي ، فإذا غاب العلم حصل الاضطراب عند الدعاة ، قال الله تعالى: ((أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم)) [الملك:22]. ومن أجل ربط الدعاة بالعلوم الشرعية ، وتنمية قدراتهم العلمية ، سعى المنتدى الإسلامي إلى إقامة الدورات الشرعية والملتقيات الدعوية التي بلغ عددها حتى إصدار هذا العدد (18) ملتقى دعوي و (16) دورة شرعية ، وهي أربعة أنواع:

1- دورات شرعية متخصصة قصيرة:

يشترك فيها الدعاة المتخرجون من الجامعات أو الدعاة المتميزون في المنطقة ، وتقوم اللجنة العلمية في المنتدى الإسلامي بإعداد برنامج تفصيلي لهذه الدورات حسب حاجة الدعاة المستفيدين بالتشاور مع بعض العلماء وطلاب العلم ، ثم يتكفل المنتدى الإسلامي بإرسال عدد من طلاب العلم إلى مقر الدورة، ويقوم مكتب المنتدى في المنطقة بالترتيب

والإعداد لهذه الدورة ويتراوح عدد المستفيدين في الدورة الواحدة من 50 إلى 100 داعية.

2- دورات شرعية متخصصة طويلة:

يشارك فيها الدعاة المتخرجون من الجامعات الإسلامية ، وهي دورات مركزة يشترك فيها حوالي 30 داعية لمدة ثلاثة أشهر ، وتقام فيها الدروس المتتابعة يومياً بعد الفجر إلى المساء في العقيدة والفقه وأصوله والتفسير والحديث ومصطلحه وفقه الدعوة ، بالإضافة إلى بعض التطبيقات الميدانية.

3- ملتقيات دعوية إقليمية:

ويدعى إليها الدعاة من دول مختلفة، ومن أماكن متفرقة ، ويرسل المنتدى الإسلامي عدداً من الدعاة المؤهلين شرعياً ودعواً لإلقاء الدروس والمحاضرات في هذه الملتقيات ، ويستمر انعقاد الملتقى من عشرة أيام إلى خمسة عشر يوماً، ويتراوح عدد المستفيدين من الملتقى الدعوي من 80 إلى 150 داعية.

4- دورات شرعية محلية:

يشارك فيها الدعاة المحليون بمختلف المستويات ، حيث يقوم الدعاة المحليون الأكفاء التابعون للمنتدى الإسلامي بالتدريس في هذه الدورات ، ويتم إعداد المنهج العام من قبل اللجنة العلمية بالمنتدى. ويعتزم المنتدى إقامة عدد من الملتقيات الدعوية والدورات الشرعية في الصيف القادم إن شاء الله.

وتهدف هذه الدورات والملتقيات الدعوية إلى:

- 1- نشر وترسيخ العقيدة الصحيحة.
- 2- تنشيط وتقوية الدعوة.
- 3- نشر العلم الشرعي بين أوساط الدعوة.
- 4- تواصل الدعوة وطلاب العلم.
- 5- ترشيح الدعاة المتميزين لكفالتهم ضمن دعاة المنتدى الإسلامي (إن لم يكونوا مكفولين من أي جهة أخرى).
- 6- جمع معلومات عن المناطق التي ينتمي إليها المشاركون.
- 7- معالجة المشكلات الدعوية الميدانية التي يعاني منها الدعاة.

تكاليف هذه الدورات:

- * التكلفة التقديرية لدورة شرعية متخصصة 300.5 دولار.
 - * التكلفة التقديرية لدورة شرعية محلية 350.1 دولار.
 - * التكلفة التقديرية لملتقى دعوي إقليمي 8000 دولار.
- وهذه التكلفة شاملة لمصاريف السفر والإقامة ومقر الدورة والتغذية والكتب ونحوها.

خامساً - حلقات تحفيظ القرآن الكريم:

أنزل الله عز وجل كتابه العزيز لكي يكون نوراً وهدى للناس ، وحث الرسول -صلى الله عليه وسلم- على قراءته وحفظه وتدبر آياته ، وجعل الله عز وجل أهل القرآن هم خاصته وأحباؤه ، فهم خير الناس وأعلاهم منزلة ، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه). وتعلم القرآن وحفظه في الصغر مما يفيد المسلم وبعينه ، وتربية النشء على تلاوة الكتاب العزيز وحفظه وتفهمه مطلب أساس من المطالب التربوية. ويسعى المنتدى الإسلامي ولله الحمد والمنة إلى تكوين المحاضن التربوية لأبناء المسلمين ، عن طريق افتتاح حلقات تحفيظ القرآن الكريم. وقد أعدت اللجنة العلمية في المنتدى خطة متكاملة لهذه الحلقات يحفظ فيها الطالب كتاب الله عز وجل كاملاً في ثلاث سنوات ، كما أعدت اللجنة منهجاً مبسطاً لتعليم العقيدة الإسلامية وأصول الإسلام العامة ، ليشب الطفل ويتربّع منذ نعومة أظفاره على العلم الصحيح والعقيدة السليمة. يُدرّس في كل حلقة داعية ، أو معلم قرآن ، ويشرف عليه أحد الدعاة ويقدم المدرس بعض الهدايا والجوائز التشجيعية للطلاب لجذبهم وتقريبهم إلى الحلقة ، وبخاصة المتفوقين منهم ، ويبلغ عدد الدارسين في الحلقة من 20 إلى 50 طالباً. وحيث إن المصاحف غير متوفرة في كثير من البلاد الإسلامية ، فإن الطلاب يستخدمون غالباً الكتابة على الألواح ، ولهذا فإن المنتدى سوف يقوم إن شاء الله تعالى بتوفير نسخ من القرآن الكريم لجميع الطلاب. كما سوف يطبع المنتدى الإسلامي إن شاء الله المنهج العلمي المعد لتوزيعه على المعلمين. ويبلغ متوسط التكلفة الشهرية لحلقة تحفيظ القرآن الكريم 80 دولار ، والمتوسط السنوي يبلغ 960 دولار ، وذلك يشمل: مكافأة المعلم ، والمصاحف ، والمنهج العلمي ، والجوائز التشجيعية ، والمستلزمات الأخرى.

منتدى القراء

الاعتذار من العلم!!

جمال الحوشبي

مع كل يوم تشرق شمس.. تقذف المطابع بالآف الكتب والرسائل العلمية التي تُعنى بقضية (الردود) بين العلماء، أو قضية (النقد) للأطروحات أو المطبوعات، طمعاً في التعديل أو التبديل. كل ذلك أضحى سمة من سمات العصر اكتسحت الساحة الإسلامية كغيرها من القضايا ، وأخذت هذه الردود بالفعل (حيزاً) لا بأس به من المكتبة الإسلامية الخاصة لدى كثير من الأفراد.

لم تعد وسائل نشر تلك الردود هي الأوراق، فقد تعدت ذلك النطاق إلى وسائل أخرى مسموعة ومرئية ، وحتى نتبين حقيقة الأمر علينا أن نرجع قليلاً إلى الوراء!

لقد مير على الأمة الإسلامية حقبة من الزمن ليست بالبعيدة كان الفقه فيها أحكاماً بلا أدلة ، والفقيه راوية بلا اجتهاد ، والنحوي حافظاً بلا ملكة ، كل ذلك يسير في رتابة عجيبة لم تتبدل ، وعلى طريقة شوهدت صفاء الشريعة ونقائها ولما أراد الله أن تعود للشريعة مكانتها ، ويعود الفقه الإسلامي دفاقاً زاخراً متحرراً من ربة (التعصب) المذهبي والجمود الذي قضى على روح البحث والاجتهاد يُسرّ سبيل مثل تلك الردود العلمية المجردة من الهوى، ومثل ذلك النقد الهادف بين العلماء. إن التجرد (للحق) لا للأشخاص والدعوة إلى نبع الكتاب والسنة ونبذ ما خالفهما هي السمة التي يجب أن تُصاغ بها تلك الردود.

واليوم وفي غمرة انشغال بعضهم بمثل هذه الردود التي أخذت تطفو على السطح أكثر من أي وقت مضى ، تبقى الحاجة ماسة إلى التذكير بضوابط مثل تلك الردود والانتقادات.

إن من أهم تلك الضوابط وأولها بالطرق والتذكير قضية التأدب مع العلماء المجتهدين والدعاة المخلصين من أهل السنة في شتى بقاع الأرض وتؤكد أهمية تلك القضية إذا علمنا أن بعض القضايا قد يتصدى لها من لا يحسنها ، كما أن الأمر قد يوسد أحياناً إلى غير أهله!! وقبل هذا وذاك الحذر من خطرات النفس والهوى وتزيين الشيطان وحزبه ، فإنهما يؤديان إلى تزييف الحقائق ، وإلى اتهام النوايا بغير برهان!

لقد زاد من غربة العمل الإسلامي اليوم فئام من الناس مادت بهم سفينة العمل الإسلامي ، وهم مع من يدعون الإصلاح: يقولون ما لا يعملون ويعملون ما لا يحسنون ، يرصدون الزلة ، ولا يبصرون شوامخ الصواب ويتبعون الهفوة ، ولا يرجون لمجتهد ثواباً!؟

إنه وإن ولى زمان كان يُستحى فيه من الجهل ، فقد أطل زمان احتاج فيه علماؤه ودعائه إلى أن يعتذروا مما عندهم من العلم إذا قاموا بحقه واجتهدوا في نشره وتبليغه للناس ، كل ذلك حتى لا تتهم النوايا ، ولا تحمل على غير محاملها الطوايا! وكأنني بهم يرددون مقالة عبد الله بن مسلم بن قتيبة لما أخرج كتاباً استدرك فيه على (أستاذه) أبي عبيد القاسم بن سلام أسماء (إصلاح الغلط في غريب الحديث لأبي عبيد) ، فقال رحمه الله بعد أن كثر عاذلوه وتصدى له شائئوه ومبغضوه من جملة ما قاله:

«... وقد كنا زماناً نعتذر من الجهل ، فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم ، وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة ، فصرنا نرضى بالسلامة ، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال ، ولا ينكر مع تغير الزمان وفي الله خلف وهو المستعان» ، إنه لسان حال كثير من دعاة الإسلام وعلمائه في ظل

تكالِب الأعداء، وكيد الحساد ، وظلم ذوي القربى، وتواطؤ السواد على الصمت والرضى بالسلامة ، ونقل الأخبار من غير توثيق أو تمحيص. أناس أمّانهم فبثوا حديثنا فلما قصرنا السير عنهم تقوّلوا

الورقة الأخيرة

الدعاة بين رجل ورجل

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

الأحداث في العالم الإسلامي تتلاحق ، والمتغيرات السياسية تتابع والصراع بين الإسلام والكفر ينتقل من طور إلى طور ومن دائرة إلى أخرى والمسلمون في جميع الأحوال كالأيتام على موائد اللئام! ولقد ورثت الصحوة الإسلامية المعاصرة تركة مهترئة من الانحراف والتخلف الذي أصاب الأمة الإسلامية بعامة ، نتيجة قرون متتابعة من العجز والضعف ، ولن ينهض بها من هذه الكبوة جهود أفراد معدودين مهما بلغت إمكانياتهم وقدراتهم ، بل هي في حاجة لكل الطاقات والجهود يُكمل بعضها بعضاً ، ويُسدّد بعضها بعضاً... والعمل الإسلامي بفضل الله تعالى سائر بكل ثقة وأطمئنان ، يشق طريقه على الرغم من كثرة العراقيل والعقبات، ولكن ألم يسأل الواحد منا نفسه في يوم من الأيام: ما هو دوري في هذه المسيرة؟! وماذا قدّمت لخدمة هذا الدين؟! هل يكفي أن يبقى الإنسان متفرجاً ، متابعاً لمسيرة الصحوة الإسلامية من بُعد لا يتجاوز دوره التشجيع والتعاطف...؟! هل يكفي أن يكون دور الإنسان تكثير سواد الصالحين فحسب...؟! أيجوز أن يقتصر الدور على الحوقلة والاسترجاع إذا أصاب الدعوة ما أصابها؟! لا شك بأن هذه سلبية مفرطة ، أقعدت كثيراً من الناس عن الإنتاج والعطاء ، وإننا نملك طاقات هائلة بحمد الله تعالى ولكنها طاقات كامنة خاملة، لثم تُسخر التسخير الأمثل لخدمة الأمة، ولقد كبّلت كثير من هذه الطاقات بأسار من العجز والضعف، حتى أصبحنا نرى جموعاً غفيرة من الصالحين ، ولكن مع الأسف الشديد حالهم كما وصفهم الشاعر:

يُثقلون الأرض من كثرتهم ثم لا يُغنون في أمرٍ جليل

إن الثروة الحقيقية التي تملكها الأمة ليس في الأموال أو الأجهزة والمعدات ونحوها، وإنما هي في الإنسان الجاد الذي يشعر بالمسؤولية وعظم الأمانة. وإننا في مرحلة تقتضي أن يُفكر الإنسان كيف يستطيع أن ينتج ، بل كيف ينتج بأكثر من طاقته..! ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا وجدت الهمة العالية والعزيمة الصادقة ، التي تتطلع إلى أفق عال وقمة سامقة من العطاء والإبداع ولا ترضى بالقليل من العمل.

فلا يقتل الطموحات إلا استصغار الإنسان نفسه ، يُكبلها بالعجز ، حتى يصل إلى حد الشلل الذي يعوقه عن الحركة والإنتاج ، وإن طاقة الإنسان تتآكل

غالباً حينما يزدرى الإنسان نفسه ، ويشعر أنه ضعيف لا يستطيع أن ينجز عملاً أو يبدع أمراً. وفي كثير من الأحيان لا يكتشف الإنسان طاقاته ومواهبه إلا من خلال التجارب.

وإنتاج المرء غالباً يعتمد علي مقدار طموحه وهمته، فالإنسان الطموح هو الذي يجعل أمامه هدفاً عالياً ، حتى ولو كانت قدراته لا تؤهله لذلك الآن لأنه سوف يحرص على تنمية قدراته للوصول إلى هدفه ، فإذا نمت القدرات فإنه لن يبقى عند هدفه الأول ، بل سوف تنمو طموحاته وتزداد ، وما أجمل قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «العامّة تقول: قيمة كل امريء ما يُحسن والخاصة تقول: قيمة كل امريء ما يطلب» (1).

الهوامش:

(1) نقله عنه ابن القيم في مدارج السالكين (3/3).

تمت بعون الله والحمد لله رب العالمين
